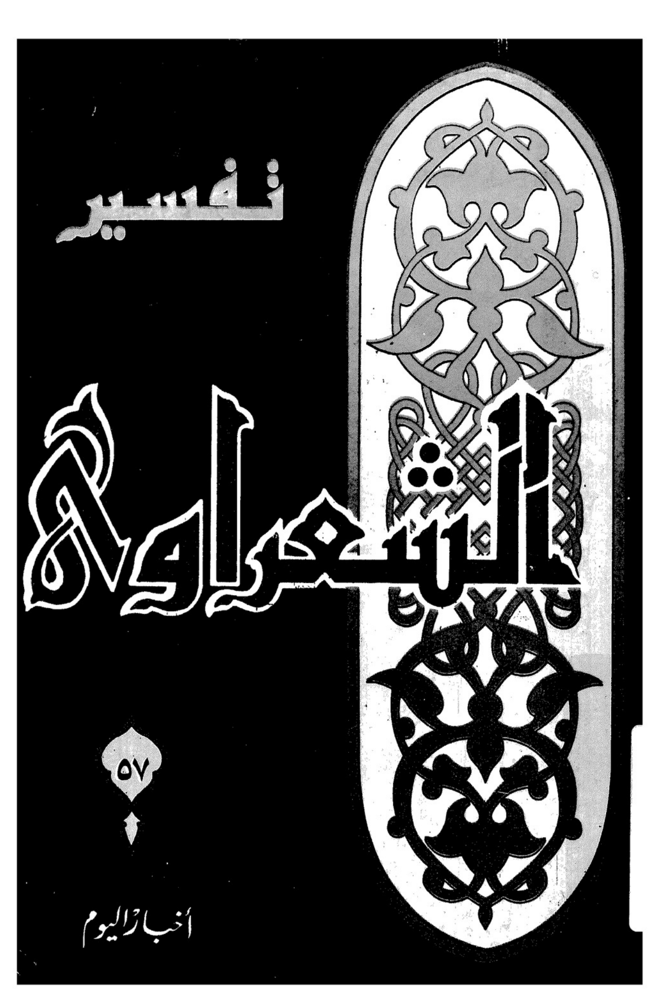

تفسير
الشعراوي
٥٧
أخبار اليوم

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الدكتور / عاطف رمضان دياب
جمهورية مصر العربية

ومحمد صلى الله عليه وسلم لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، فقد حارب، وانتصر، وحارب وانهزم، وتاجر فربح، ويسير عليه ما يسير على البشر، ومرة يدبر الأمر الذى لم يكن فيه منهج من السماء، فمرة يصيب ومرة يخطىء. فيصحح له الله؛ لذلك يأتى القول على لسانه بأمر من الله: لو كنت أعلم الغيب لما وقعت فى كل هذه المسائل، وكان أهل رسول الله من قريش قد قالوا: إننا أقاربك، فقل لنا على موعد الساعة. حتى نستعد لملاقاتها.

ويتابع المولى سبحانه قوله: ﴿ وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾

وساعة ترى « إن » فهى مرة تكون شرطية مثل: « إن ذاكرت تنجح »، ومرة تكون للنفى وتجد بعدها اسما، والمعنى: ما أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون. والكلام موجه إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذارة وبالبشارة، وما يُنذروا به لا يفعلوه، وما يبشروا به يفعلوه.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾

وقوله تعالى: « خلقكم من نفس واحدة » المقصود بها آدم، وقول الحق: « وجعل منها زوجها» المقصود بها حواء، ونلحظ فى الأداء فى هذه الآية أن الضمير عائد إلى مؤنث.

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ﴾

ثم جاء بالتذكير فى قوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

إذن فصل الذكورة عن الأنوثة جاء عند « ليسكن » . فكأن الكلام فى النفس معنيٌّ به جنس بنى آدم وهو الذى نسميه « الإنسان » ومنه ذكورة ومنه أنوثة ، ولذلك فسبحانه حينما يتكلم عن الذكورة كذكورة ، والأنوثة كأنوثة ، يأتى بضمير المذكر ، أو بضمير المؤنث ، وقوله : ﴿ ليسكن إليها ﴾

لأنه يريد أن يوضح أن المرأة جُعلَت للرجل سكناً ، لا يقال : إنها له سكن إلا إذا كان هو متحركاً ، كأن الحركة والكدح فى الحياة للرجل ، ثم يستريح مع المرأة ويسكن إليها بالحنان ، بالعطف ، بالرقة. أما إن لم تكن سكناً فهو يخرج من البيت لأن ذلك أفضل له. وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وجعل منها زوجها ﴾

يذكرنا بما عرفناه من قبل من أن الله خلق آدم من الطين ومن الصلصال ثم نفخ فيه ربّنا الروحَ ، أما حواء فقد ذكرها فى هذه المسألة ، وأوضح : أنا جعلت منها زوجها ، و« منها » أى أنها قطعة منه ، وقيل : إنها خلقت من ضلع أعوج ، ومن يرجح هذا الرأى يقول لك : لأن الله يريد أن يجعل السكن ارتباطاً عضويا ، فالمرأة بعض من الرجل ، ونعرف أن الواحد منا يحب ابنه لأنه بعض منه. وعلى ذلك فهذا القول جاء لتقديم الألفة. وهناك من يقول : إن حواء خلقت مثل آدم فلماذا جاء ذكر آدم ولم يأت بذكر حواء؟

ونقول : إن آدم أعطى الصورة فى خلق الإنسان من طين ، لأن آدم هو الرسول وهو المسجود له. ونعلم أن المرأة دائما مبنية على الستر. ومثال ذلك نجد الفلاح فى مصر لا يقول : زوجتى ، بل يقول : « الجماعة » أو « الأولاد » أو يقول : « أهلى » ولا يذكر اسم الزوجة أبداً.

والحق يقول هنا : « وجعل منها » ، فإن كانت مخلوقة من الضلع فـ « منْ »

تبعيضية ، وإن كانت مخلوقة مثل آدم تكون « منْ » بيانية ، أى من جنسها ، مثلها مثلما يقول ربنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ·

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

أى الرسول من جنسنا البشرى ليكون إلف المبلغ عن الله ، والمبلغ عن الله واحدا منا ونكون مستأنسين به ، ولذلك قلنا : إن اختيار الله للرسول صلى الله عليه وسلم من البشر فيه رد على من أرادوا أن يكون الرسول من جنس آخر غير البشر ، فقال الحق على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويأتى الرد عليهم :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ثم لو كان الرسول من جنس الملائكة فكيف كانوا يرونه على حقيقته ؟ كان لابد أن يخلقه الله على هيئة الإنسان.

ويتابع سبحانه :

﴿ فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً ﴾

و« تغشاها » تعبير مهذب عن عملية الجماع فى الوظيفة الجنسية بين الزوج والزوجة ، والغشاء هو الغطاء ، وجعل الله الجماع من أجل التناسل ليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .

والمعنى هنا أنها حملت الجنين لفترة وهى لا تدرى أنها حامل، لأن نموّ الجنين بطىء بطىء لا تشعر الأم به.

﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

ومرت به، مقصود بها أنها تتحرك حركة حياتها قياماً وقعوداً إلى أن تثقل وتشعر بالحمل فى شهوره الأخيرة.

وهنا عرف الزوج أن هناك حملا ورفع الاثنان أيديهما بالدعاء لله عز وجل أن يكون الولد صالحاً بالتكوين البدنى وصالحاً للقيام بقيم المنهج.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة الأعراف)

أى أن الذكورة قد انفصلت عن الأنوثة، وصار الذكر يسكن عند الأنثى.

وهكذا كان الأمر الخاص بآدم، ثم جاء الكلام للذرية، وخصوصا أن حواء كانت تحمل بذكر وأنثى، وآدم وحواء وأولادهما هم أصل التواجد البشرى وأصل التوالد.

والقرآن قد يتكلم فى موضوعات تبدو متباعدة. لكنها تضم قيماً ذات نسق فريد، فنجد الحق يتكلم فى أمر ثم يتكلم فى آخر، مثل قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

ولم يأت بسيرة البر هنا، بل تكلم بالبر والبحر ثم انتقل إلى الحديث عن مجيء الموت، وأيضاً انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا يوصى الحق الإنسان بوالديه، بالأب وبالأم، ثم يتابع:

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ولم تأت سيرة الرجل بل كل الحيثيات للأم.

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

ويروى أن هذه الآية قد نزلت فى «قُصَىّ» وهو جد من أجداده صلى الله عليه وسلم، فقد طلب قُصَىّ من الله أن يعطى له الذرية الصالحة، فلما أعطاه ربنا الذرية الصالحة سماها بأسماء العبيد، فلم يقل: عبدالله، أو عبدالرحمن، بل قال: عبد مناف، عبدالدار، عبدالعزى. وجعل لله شركاء فى التسمية، ولهذا جاء قول الحق: «جعلا له شركاء فيما آتاهما»؛ ليدلنا على أن الإنسان فى أضعف أحواله، أى حينما يكون ضعيفاً عن استقبال الأحداث، يخطر بباله ربنا؛ لأنه يحب أن يسلم نفسه لمن يعطى له ما يريده، وبعد أن ينال مطلبه ينسى، ولذلك يقول الحق:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فائدة الضر أنه يجعلنا نلجأ إلى ربنا ، ولذلك نجد الإنسان أحسن ما يكون ذكراً لله وتسبيحا لله حينما يكون فى الشدة وفى المرض ، ولذلك لو قدر المريض نعمة الله عليه فى مرضه وشدته ، لا أقول : إنه قد يحب أن يستطيل مدة المرض والشدة. لا ، بل عليه فقط ألا يضجر وأن يلجأ إلى ربه ويدعوه. وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك حينما قال : ﴿ اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى. إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدوّ ملّكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ﴾ (١)

والإنسان ساعة يوجد فى المرض عليه أن يعرف النعمة فيه ، فهو فى كل حركة من حركاته يذكر الله ، وكما تخمد فيه طاقات الاندفاعات الشهوانية ، يمتلىء بإيجابيات علوية ، ولذلك نجد الحديث القدسى يقول فيه ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ، قال : وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب . كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان ، فلم تطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يارب . كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ﴾ (٢)

إذن ماذا عن حال مريض يستشعر أن ربه عنده ، ويكون فى المرض مع المنعم ، وفى الصحة مع النعمة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى باب فضل عيادة المريض .

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومعنى هذا أن ربنا تبارك وتعالى ينزه نفسه عما يقول فيه المبطلون ويشركون معه ما يزعمون من آلهة. ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

أيشركون فى عبادة الله من لا يخلقون شيئاً، وهم أنفسهم مخلوقون لله، إن من أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم وتنازلوا عن العقل، وكان الواجب أن يكونوا عقلاء فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون ﴾

ولذلك فإن هناك آية أخرى تفضح زعمهم يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ونعلم أن البشر فى المعامل قد عرفوا العجز عن خلق خلية واحدة وهى التى لا ترى بالعين المجردة، ولذلك أوضح الحق أن المسألة ليست أمر خلق، بل إن الذباب لو وقع على طعام إنسان وأخذ على جناحه أو فى خرطومه شيئاً، لن يستطيع أحد أن يسترد المأخوذ منه، فقد ضعف الطالب والمطلوب.

والخلق - كما نعلم - أول مرتبة من مراتب القدرة، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم، فكيف يعبدونها ؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل. بل إذا أراد العابدون أن يزيدوا صنماً صنعه العابدون بأنفسهم. ونلحظ أن الحق جاء هنا بالقول : « أيشركون » بصيغة تعجب، والتعجب ينشأ عن إنكار ما به الاستفهام، أى تعجب منكراً على وفق الطباع العادية، مثلما

يقول لنا :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

أى قولوا لنا ما الطريقة التى بها تكفرون بالله وتسترون وجوده ، مع هذه الآيات البينات الواضحات ؟ فكأن ذلك أمْر عجب يدعو أهل الحق للدهشة والاستغراب والإنكار الشديد ، وحينما يتكلم الحق بإنكار شيء لأنه أمر عجيب ، يوجه الكلام مرة إليهم ، ومرة أخرى يوجهه إلى غيرهم ، مثل قوله هنا :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

والكلام للمؤمنين لأنه يريد أن يعطى لقطتين فى الآية ، اللقطة الأولى : أن ينكر ما فعله هؤلاء ، وأن يزيد القوم الذين لم يفعلوا ثقة فى نفوسهم ، وفرحة بمواقفهم الإيمانية ، حيث لم يكونوا مثل هؤلاء.

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ﴾

وفى الآية الكريمة وقفة لفظية فى الأسلوب العربى نفسه قد تثير عند البعض إشكالا ، فى قوله تعالى : « ما لا يخلق شيئاً ». و« ما » تعنى الذى لم يخلق شيئاً ، و« يخلق » هنا للمفرد ، وسبحانه وتعالى جعل للمفرد هنا عمل الجمع فقال :

﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً ﴾

وأقول : إن الذى يقف هذه الوقفة ، ويلاحظ هذا الملحظ إنسان سطحى الثقافة بالعربية ، لأنه لا يعلم أن « ما » و« من » و« الـ » تطلق على المفرد والمفردة ، وعلى المثنى والمثناة ، وعلى جمع الذكور وجمع الإناث ، فتقول : جاءنى من أكرمته ، وجاءتنى من أكرمتها ، وجاءنى من أكرمتهما ، وجاءت من أكرمتهما ، وجاء من أكرمتهم وجاء من أكرمتهن.

وكذلك « ما ». إذن فقول الحق : « ما لا يخلق » فى ظاهرها مفرد ، ولكن اللفظ

يطلق على المفرد والجماعة؛ لذلك جاء في الأمر الثاني وراعى الجماعة، إذن « يخلق » للمفرد، و« هم يخلقون » للجمع لأن قوله : « ما » صالح للجميع أى للمفرد وللمثنى وللجمع وللمذكر وللمؤنث.

ومثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وسبحانه قال هنا : « ومنهم من يستمع إليك »، ولم يقل : « حتى إذا خرج من عندك » بل قال : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا » أى أنه جاء بالجماعة، فإذا رأيت ذلك فى « ما » و« من » و« الـ » فاعلم أن هذه الألفاظ يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى والمثناة وجمع الذكور ولجمع الإناث. ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾.

وهنا فى هذه الآية وقفة لغوية أخرى فى قوله : «هم» وهى لا تطلق إلا على جماعة العقلاء، فكيف يطلق على الأصنام « هم » وليست من العقلاء ؟ وأقول : إن الحق سبحانه وتعالى لما علم أنهم يعتقدون أنها تضر، وأنها تنفع، فقد تكلم معهم على وفق ما يعتقدون، لكى يرتقى معهم فى رد الإنكار لكل ما يستحق الإنكار. فأول مرحلة عرفهم أن الأصنام لا تخلق، وثانى مرحلة عرفهم أنهم هم أنفسهم مخلوقون والأصنام لا تقدر على نصرهم، إذن فهم معطلون من كل ناحية؛ لأنهم لا يخلقون. وهذا أول عجز، ومن ناحية أخرى أنهم يُخْلَقون وهذا عجز آخر، لكن بعد هذا العجز الأول والعجز الثانى فهل هم قادرون على نصر غيرهم ؟ ها هو ذا سبحانه يترقى فى الحوار معهم ترقية أخرى فيقول :



إذن فلا أحد من الأصنام قادر على أن ينصر نفسه أو يضمن نصر غيره.

وهكذا نجد الترقي في الحوار على أربع مراحل، أولاً: لا يخلقون، ثانياً: هم يُخلَقون، ثالثاً: لا ينصرونكم، ورابعاً: ولا ينصرون أنفسهم. ثم تأتي المرحلة الخامسة في قوله الحق:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

وعلى ذلك فهي خمس مراحل - إذن - ، أكررها لتستقر في الذهن، أولها أنه من الجائز أنه لا يَخلُق، ومن الجائز أن يكون مخلوقاً، ومن الجائز أنه لا يقدر أن ينتصر لغيره لأنه ضعيف، ولا ينتصر لنفسه لأنه أضعف، ومع ذلك إن أردت أن تهديه إلى شيء من ذلك أو إلى شيء من العلم فلا يقبل منك.

وكانوا في الجاهلية حين يفزعهم أمر جسيم ينادونهم ويقولون: يا هبل، يا لات، يا عزى. وإن لم يصبهم أمر سكتوا عن نداء الأصنام؛ لذلك يقول لهم الله من خلال الوحي لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

أي إن دعوتكم لهم لا تفيد في أي أمر تماماً كصمتكم.

ونلحظ أن الأسلوب هنا مختلف «سواء عليكم أدعوتموهم» فلم يقل: «أدعوتموهم أم صَمَتّم»؛ لأن الفعل يقتضي الحدوث، ولنا أن نعرف أنهم كانوا لا يفزعون إلى آلهتهم إلا عند الأحداث الجسام. أما بقية الوقت فقد كانوا لا يكلمونهم أبداً؛ لذلك جاءت «صامتون» لازمة، لأنها اسم، والاسم يقتضي الثبوت والاستمرار، أما الفعل فيقتضي الحدوث والتجدد.

والحق هنا يبلغ المشركين: سواء عليكم أدعوتموهم أم لم تدعوا، فعدم الاستجابة متحقق فيهم وواقع منهم، وعدم النصر لأنفسهم ولغيرهم متحقق منهم.

ثم يتكلم الحق عن قضية أخرى فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

و« تدعون » لها معنيان ، المعنى الأول يعنى أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم ، والمعنى الثانى هو أن يقال : « تدعونه » أى تطلب منه شيئاً. والمعنيان يجيئان فى هذه الآية :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم ﴾ .

وعندما يسمع الإنسان كلمة « عباد » يفهم أنها من الجنس المتعقل الحى ، فكيف تكون الأصنام عباداً ؟ وأقول : نحن هنا نأخذها على شهرة اللفظ ، أما إذا أردنا تحقيق اللفظ وتقعيده ، فالبناء مأخوذ من التذلل والخضوع ، ألم يقل موسى لفرعون : ؟

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أذللتهم. وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تكون الأصنام عباداً أمثالهم فى أنهم يُذلون ؛ لأن السيل إذا نزل أو هبت الريح نجد هذه الأصنام قد وقعت وتكسرت رقابها ، فيهرع المشركون ليأتوا بمن يعيد ترميم هذه الآلهة ! ! إذن فأنتم أيها المشركون ؛ لأنكم مخلوقون بالله قد تملكون قدرة ، وقوة تستطيعون بها إن جاء لكم ضر أن تدفعوا الضر عنكم ، أما الأصنام فليست لها أدنى قدرة إن جاءها من يحطمها ، أو يكسرها ، أو يقلبها ، فهى أضعف منكم. وبذلك تكون كلمة « عباد أمثالكم » لوناً من الترقى.

وعلى فرض أنهم عباد أمثالكم، فالعبد من الأحياء حينما يأتى شىء يستذله، قد يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض الشىء إلا إن كان الشىء قويا فوق طاقته. فالمراد والمقصود أنهم عباد أمثالكم أى مذللون ومسخرون ولا يستطيعون دفع شىء عن أنفسهم. وأنت إذا ما نظرت إلى هذه المسألة وأخذت معنى عباد على معناها الإطلاقى، فأنت تعلم أن العبد هو كل مسخر مذلل من العباد.

لكن هناك مذلل ومسخر فيما لا اختيار له فيه، وآخر مذلل ومسخر فيما له فيه اختيار أيضاً، والفرق بين الاثنين أن الكافر فيما له اختيار؛ إما أن يؤمن وإما أن لا يؤمن ويختار الكفر، بل إن الإنسان المؤمن له الاختيار فى أن يطيع أو يعصى. ولكن هناك أشياء أخرى تجرى على الإنسان لا اختيار له فيها، كأن يمرض ولا يقدر أن يقول: لا لن أمرض، أو قد يأتيه الموت فلا يقدر أن يقول: لن أموت. وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع دفع القدر، وكل هذه أمور قهرية يكون الإنسان فيها مذللاً مسخراً، والكافر والمؤمن فى هذه الأمور سواء.

والمؤمن يتميز بأنه يتبع منهج الله فيما له فيه اختيار، وهذه فائدة الإيمان، وبذلك يخرج المؤمن عن الاختيار المخلوق لله، إلى مراد الله منه فى الحكم، ويستوى بكل شىء مسخر لله، ولذلك نقول للذين يكفرون: كفرتم وتأبيتم بما خلق فيكم من الاختيار عن الإيمان بالله.

. وقد جعلها الله لكم بقوله:

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومادام الواحد منكم أيها الكافرون يتأبى ويستكبر على حكم الله، إذن فللواحد منكم أيها الكافرون رياضة على التمرد، فلماذا لا تقول للمرض لن أستسلم لك. ولن يستطيع أحد الكافرين ذلك، لأنه إنما يكفر بما له حق ممنوح من الله فى منطقة الاختيار، أما فى غير ذلك فالكل عباد مذللون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وقول الحق تبارك وتعالى : « فادعوهم » أي اطلبوا منهم أن يلبوا لكم أي طلب، وهم لن يستجيبوا لكم؛ لأنهم لا يقدرون أبداً. وفي هذا القول لون من التحدى « فليستجيبوا لكم » لكنهم لن يستجيبوا، فليست لهم قدرة لأن يخرجوا على أمر ربنا ويقولوا سنعطيكم ما تطلبون، لأن طاقتهم وطبيعتهم لا تقدر أن تستجيب.

وبعد أن قال الحق عن الأصنام : إنهم عباد أمثالكم، أراد أن ينزلهم منزلة أدنى من البشر فقال :

﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (١٩٥)

وينبه الحق تبارك وتعالى كل مشرك، وكأنه يقول له : أنت لك رجل تمشى بها، ولك يد قد تبطش بها، ولك أذن تسمع، ولك عين تبصر، فهل للأصنام حواس مثل هذه ؟. لا، ليست لهم، إذن، فالأصنام أقل منك، فكيف تجعل الأقل إلهاً للأكبر ؟ إن هذا هو جوهر الخيبة.

وقوله : « يمشون بها »، و« يسمعون » و« يبصرون » جاءت لأن المشركين صوروا التمثال وله رجلان وله إذنان وله عينان ويضعون في مكان كل عين خرزة لتكون مثل حدقة العين، وحين ينظر إنسان منهم إلى التمثال يخيل إليه أن التمثال ينظر إليه. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ١٩٨ سورة الأعراف)

وفى قوله تعالى :

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

حين يعرض الحق مثل هذه الأمور بأسلوب الاستفهام. فإنما يريد أن يحقق المسائل عن أقوى طريق، لأن الاستفهام لابد له من إجابة. والكلام من الله عند الكافر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب. وإجابة الكافر ستكون قطعاً بعدم استطاعة الأصنام المشى أو اللمس أو الرؤية أو السماع ؛ لذلك أراد الحق ألا يكون الحكم من جهته. بل الحكم من جهة المشركين، وفى هذا إقرار منهم. ولذلك يقول الحق مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾

(سورة الانشراح)

أما كان يستطيع سبحانه وتعالى أن يقول : شرحنا لك صدرك ؟ كان يستطيع ذلك. ولكنه يأتى بالاستفهام الذى يكون جوابه : بلى لقد شرحت لى صدرى . وينبه قوله تعالى :

﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ﴾

إلى مقارنة الأصنام بالبشر . فالبشر لهم أرجل وأيْد وأعين وآذان، وكل من هذه الجوارح لها عمل تؤديه، وهكذا يتأكد للمشركين أنهم أعلى مرتبة من أصنامهم.

فكيف يجوز فى عرف العقل أن يكون الأعلى مرتبة مربوباً للأدنى مرتبة ؟ إن ذلك لون من الحمق .

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ورسول الله جاء بهذا القول ليدحض إيمانهم بهذه الأصنام التى اتخذوها آلهة وليسفه أحلامهم فيها ، وبذلك أعلن العداوة ضدهم - العابدين ، والمعبودين - وصارت خصومة واقعة ، وسألهم أن يدعوا الشركاء ليكيدوا لرسول الله بالأذى أو التعب أو منع النصر الذى جاء للإسلام ، إن كانت عندكم أو عندهم قدرة على ضر أو نفع.

﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾

ويتحداهم صلى الله عليه وسلم أن يكيدوا هم وآلهتهم ، والكيد هو التدبير الخفى المحكم. وانظروا ما سوف يحدث ، ولن يصيب رسول الله بإذن ربه أدنى ضر.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى قد أجرى على رسول الله أشياء ، ليثبت بها أشياء ، وقد قالوا : إن واحداً قد سحر النبى ، ولنفرض أن مثل ذلك السحر قد حصل ، فكيف ينسحر النبى ؟ ونقول : ومن الذى قال : إنه سحر ؟. إن ربنا أعلمه بالساحر وبنوع السحر ، وأين وضع الشيء الذى عليه السحر ، ليبين لهم أن كيدهم حتى بواسطة شياطينهم مفضوح عند الله.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

وهم كانوا قد بيتوا المكر لرسول الله وأرادوا أن يضربوه ضربة واحدة ليتفرق دمه فى القبائل ، فأوضح ربنا : أنتم بيتم ، ولكن مكركم يبور أمام أعينكم. وليثبت لهم أنهم بالمواجهة لن يستطيعوا مصادمته فى دعوته. ولا بالتبييت البشرى يستطيعون أن يصدموا دعوته ، ولا بتبييت الجن - و هم أكثر قدرة على التصرف - يستطيعون

مـواجهـة دعوته. ومـاداموا قـد عـرفوا أنهم لن يظهروا على الرسـول، ولن يفيد مكرهم أو سحرهم أو كيدهم مع شياطينهم، إذن فلابد أن ييأسوا، ولذلك تحداهم وقال :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سورة الأعراف)

وأنظره يعنى أخره، والقول هنا : لا تؤخروا كيدكم مع شركائكم،

بل نفذوا الكيد بسرعة، وقد أمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما آوى إلى ركن شديد؛ لذلك يقول رسول الله بأمر الحق :

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

ومادام الولىّ هو الله، فالرسول صلى الله عليه وسلم لايبالى بهم، و"الولى" هو الذى يليك، وأنت لا تجعل أحداً يليك إلا أقربهم إلى نفسك، وإلى قلبك، ولا يكون أقربهم إلى نفسك وإلى قلبك، إلا إذا آنست منه نفعاً فوق نفعك، وقوة فوق قوتك، وعلماً فوق علمك، وقول الرسول بأمره سبحانه وتعالى :

﴿ إن وَلِيِّيَ الله ﴾

أى أنه ناصرى على أى كيد يحاول معسكر الشرك أن يصنعه أو يبيته لى. فالله هو ولى الرسول أى ناصره، والقريب منه بصفات الكمال والجلال التى تخصه سبحانه وتعالى، وعندما يكون لمؤمن خصلة ضعف فهو يذهب لمن عنده خصلة قوة، ولذلك قلنا فى قصة موسى عليه السلام حين التفت قومه ووجدوا قوم فرعون فقالوا :
﴿ إنا لمدركون ﴾

أى أن جيش فرعون سيدركهم ، لأن البحر أمامهم والعدو وراءهم. وليس أمامهم فسحة أمامية للهرب ولا منفذ لهم إلا أن يصمدوا أمام جيش فرعون وهم بلا قوة ، ولم يكذبهم موسى عليه السلام فى قولهم. بل قال لهم يطمئنهم :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهنا خرجت المسألة عن أسباب البشر وانتهت إلى الركن الشديد الذى يأوى إليه الرسل. ولا يقول هذا القول إلا وهو واثق تمام الثقة من نصرة الله ، وسبق أن رويت لكم حكاية المرأة الأوربية التى أسلمت لأنها كانت تقرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كبطل من أبطال العالم ، صنع أكبر انقلاب فى تاريخ البشرية ، ولما مرت فى تاريخه صلى الله عليه وسلم ، قرأت أن صحابته كانوا يحرسونه من خصومه وأعدائه ، إلى أن فوجئوا فى يوم ما بأن قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهبوا عنى . فإن الله أنزل علىّ :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

واستوقفت هذه الواقعة هذه المرأة فقالت : إن هذا الرجل إن أراد أن يكذب على الناس جميعاً ما كذب على نفسه ، ولايمكن أن يُسلم نفسه لأعدائه بدون حراسة إلا إذا كان واثقاً من أن الله أنزل عليه هذا ، وأنه قادر أن يعصمه ، وإلا دخلَ بنفسهً فى تجربة. والباحثة من هذه الواقعة قد أخذت لفتة العبرة. وفى مثل هذا يقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

(من الآية ١٩٥ سوة الأعراف)

وكأنه صلى الله عليه وسلم يستدعيهم إلى التحدى بالمعركة بالمكر والتبييت، وألا يتأخروا عن ذلك وهو واثق من أن الله عز وجل ينصره.

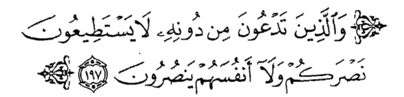
﴿ إِنَّ وَلِيِّـىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأنزل الحق تبارك وتعالى على رسوله الكتاب المبين ليبلغه للخلق، ولا يمكن أن يسلمه إلى عدو يمنعه من تمام البلاغ عن الله. لقد أنزل الحق الكتاب على رسوله ليبلغه إلى الكافة ولا يمكن أن يتخلى عنه. ﴿ إن وليِّيَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾

وقوله: " وهو يتولى الصالحين " أى أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه: كن صالحاً فى أى وقت، أمام أى عدو، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية فى قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم. وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئاً ما سوف يكون له هذا التأييد، وسبحانه الذى جعل رسوله مُبلغاً عنه المنهج، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح فى الكون، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه، أو أن يزيده صلاحاً إن أمكن.

ويقول سبحانه بعد ذلك:



لأن الذى لا يستطيع نصرك. يجوز أن يكون ضنيناً بنصرتك؛ لأن حبه لك حب رياء، أو لأنه يرغب فى أن يحتفظ بما ينصرك به لنفسه، أما حين يكون غير قادر

على نصرتك ؛ لأنه لا يملك أدوات النصر ، فهذا يبين عجز وقصور من اتخذته وليا ، وهكذا كان حال المشركين. وفي يوم الفتح جاء المسلمون بالمعاول وكُسرت الأصنام ، ولم يقاوم صنم واحد . بل تكسرت كلها جميعا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

وبطبيعة الحال لو أن أحدا دعا هذه الأصنام إلى الهداية فلن تهتدى الأصنام لأنها من الجماد الذى لا تصلح معه دعوة أو فهم. رغم أن الصنم منها له عيون كالتى تراها حاليا فى معابد الهندوس أو البوذيين ، حين يضعون للتماثيل فى مكان حدقة العين خرزاً ملوناً يشبه العين ، وتوجه الحدقة بميلها وكأنه ينظر إليك وهو لا يرى شيئاً.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم :



وهذه آية جمع فيها المولى سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق .

وبعد أن أبلغ الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدعو المشركين لأن يكيدوا له مع شياطينهم وأصنامهم ولن يستطيعوا . بعد ذلك يوضح له : أنا أحب أن تأخذ بالعفو ، وفى هذا تعليم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن يتبعه ، وكلمة "العفو" ترد على ألسنتنا ، ونحن لا ندرى أن لها معنى أصيلاً فى اللغة . وقد يسألك سائل : من أين أتيت بهذا الشيء ؟ فتقول له : جاءنى عفواً ، أى بدون جهد ، وبدون مشقة ، وبدون سعى إليه ولا احتيال لاقتنائه .

ويقال أيضاً : إن هذا الشيء جاء لفلان عفو الخاطر ، أى لم يفكر فيه ، بل جاء ميسراً. هذا هو معنى العفو. والحق هنا يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يأخذ العفو ، أى أن يأخذ الأمر الميسر السهل ، الذى لا تكلف فيه ولا اجتهاد ؛ لأنك بذلك تُسهل على الناس أمورهم ولا تعقدها ، أما حين تتكلف الأشياء ، فذلك يرهق الناس ، ولذلك يأمر الحق رسوله أن يقول :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (سورة ص)

وقوله : " وما أنا من المتكلفين " أى أنه صلى الله عليه وسلم لا يتكلف الأمور حتى تصير الحياة سهلة ولا يوجد لدد بين الناس ؛ لأن الذى يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس ، ويجب أن تقوم المعاملة فيما بينهم بدون لدد أو تكلف . ولذلك يقال : إن المؤمن هو السمح إذا باع ، والسمح إذا اشترى ، والسمح إذا اقتضى ، والسمح إذا أقتُضِى منه : أى أنه فى كل أموره سمح.

وللأمر بأخذ " العفو " معنى آخر وهو أن تعفو عمن ظلمك ؛ لأن ذلك ييسر الأمور .

والعفو أيضاً له معنى ثالث ، هو الأمر الزائد ، مثل قوله الحق تبارك وتعالى من قبل أن تفرض الزكاة :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ (من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ثم حدد الحق بعد ذلك الزكاة وأوجه إنفاقها ، ونلحظ أن الأمر بالإنفاق من قبل أن تفرض الزكاة ، والإنفاق بعد أن نزل الأمر بالزكاة يلتقيان فى السهولة ؛ لأن المؤمن لا ينفق مما يحتاجه . بل من الزائد عن حاجته .

وقول الله سبحانه وتعالى فى الآية « خذ العفو » فيه أمر « خذ » ومقابله «أعْط» وقد تعطى إنساناً فلا يأخذ منك إن رأى أن ما تعطيه له ليس فى مصلحته ، لكن إذَا قال الحق تبارك وتعالى : « خذ » ، فهذا أمر يعود نفعه عليك ، فإن كان العفو عمن ظلمك فى ظاهر الأمر ينقصك شيئاً ، فاعلم أنك أخذت العفو لنفسك.

واعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هينا ليناً مع إخوانه من المؤمنين. فإن عز عليه أخوه المؤمن فَلْيَهنْ له، فإن تعالى أو تعالم أخ مسلم عليك، فلا تتعال عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركة بينكما، بل تواضع أنت، ليزيدك الله رفعة وعزة.

وكأن الله سبحانه وتعالى يؤكد لك: أنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من خلاله. ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت حين تدخل إلى منزلك وتجد ابناً لك قد أساء إلى أخيه فيتجه قلبك وحنانك إلى المظلوم. ونحن عيال ربنا، فإن ظلم واحدٌ آخرَ، فالظالم بظلمه يجعل الله فى جانب المظلوم، ولذلك يحتاج الظالم إلى أن نحسن إليه حيث كان سببا فى رعاية الله لنا فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصرى عندما قيل له: إن فلاناً اغتابك بالأمس. ونادى سيدنا حسن البصرى الخادم وقال له: جاءنا طبق من باكورة الرطب. اذهب به إلى فلان - وحدد للخادم اسم من اغتابه - وتعجب الخادم: كيف تبعث بالرطب إليه وهو قد اغتابك؟ فقال: أفلا أحسن إلى من جعل الله بجانبى، قل له: «يقول لك سيدى بلغه أنك قد اغتبته فأهديت إليه حسناتك، وهو أهداك رطبه».

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾

وتتناول الآية الكريمة الأمر بالعرف:

والعرف هو السلوك الذى تعرف العقول صوابه، وتطمئن إليه النفوس، ويوافق شرع الله، ونسميه العرف؛ لأن الكل يتعارف عليه، ولا أحد يستحيى منه، لذلك نسمع فى شتى المجتمعات عن بعض ألوان السلوك: هذا ما جرى به العرف. وما يجرى به العرف عند المجتمعات المؤمنة يعتبر مصدراً من مصادر الأحكام الشرعية.

وخير مثال على ذلك: أننا نجد الشاب لا يخجل من أن يطرق باب أسرة ليطلب يد ابنتها، لأن هذا أمر متعارف عليه ولا حياء منه، بينما نجد المجتمع المسلم يستحيى

أن يوجد بين أفراده إنسان يزنى، والغاية من الزنا الاستمتاع، والغاية من طلب يد الفتاة هو الاستمتاع، لكن هناك فارق كبير بين متعة يحرمها الله عز وجل، ومتعة يُحلّها الله تعالى.

وفى نهاية الآية يقول الله تعالى:

﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾

وكيف يكون الإعراض عن الجاهلين ؟. يخطىء من يظن أن الجاهل هو الذى لا يعلم، لأن من لا يعلم هو الأمى، أما الجاهل فهو من يعلم قضية تخالف الواقع. ونلحظ أن المشكلات لا تأتى من الأميين الذين لا يعلمون، فالأمى من هؤلاء يصدق أى قضية تحدثه عنها وتكون مقبولة بالفطرة؛ لأنه لا يملك بديلاً لها، أما الجاهل فهو من يعلم قضية مخالفة للواقع ويحتاج إلى تغيير علمه بتلك القضية، والخطوة الثانية أن تقنعه بالقضية الصحيحة.

والحق هنا يوضح: أعرضْ عن الجاهل الذى يعتقد قضية مخالفة للواقع ويتعصب لها، وأنت حين تعرض عن الجاهل، يجب ألا تماريه، أى لا تجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدى إلى نتيجة مفيدة؛ لذلك أقول لكل من يواجه قضية التدين ولم يقرأ عن الدين كتاباً واحداً، وقرأ فى كتب الانحراف عن الدين المئات، أقول له: كما قرأت فيما يناهض الدين مئات الكتب فمن الحكمة يجب عليك أن تكون عادلاً ومنصفاً فتقرأ فى مجال التدين بعض الكتب الخاصة به مثلما قرأت فى غيرها. وإن أردت أن تبحث قضية الدين بحثاً منطقياً يصحح لك عقيدتك، فعليك أن تخْرِج كل الاقتناعات المسبقة من قلبك ووجدانك. وتدرس الأمرين بعيداً عن قلبك، ثم أدخل إلى قلبك الأمر الذى ترتاح إليه، لكن لا تحتفظ فى قلبك بقضية وتناهض منطوقها بظاهر لسانك. والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

فأنت لك قلب واحد، إما أن يمتلىء بالإيمان واليقين وإما بغير ذلك. والقلب حيز واحد فلا تشغله أنت بباطل، حين تبحث قضية الحق، بل أخرج الباطل من قلبك أولاً، واجعل الباطل والحق خارجه، وابحث بعقلك، والذى ييسرُ إليك أن تدخله إلى قلبك فأدخله.

وفى بيان معنى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها روى لنا أبيّ قال: لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم: « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما هذا يا جبريل ؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك »[1].

وسبحانه - إذن - يريد أن يعلمنا قضية إيمانية إنسانية؛ لأنك كمسلم تساعد المصاب فى بدنه، فما بالك بالمصاب فى قيمه، ألا يحتاج إلى معونتك ؟.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

و « نزغ » تساوى كلمة « نخس » أى أمسك بشىء ووضع طرَفَه فى جسد من بجانبه أو من أمامَه. ويتضح من معنى « نخس » أن هناك مسافة بين الناخس والمنخوس ووسيلة أو أداة للنخس.

وعملية النخس لا يدرك بها الناخس أو المنخوس حرارة بعضهما البعض، أما كلمة « مس » فقد يشعر الماس والممسوس كل واحد بحرارة الآخر منهما بسرعة، لكن أحدهما لا يدرك نعومة الآخر، أما اللمس ففيه إدراك لنعومة وحرارة اللامس والملموس. ومعارك الحرب كلها تدور فى هذا النطاق، فحين يكون العدو بعيداً يحتاج خصمه إلى أن يبتعد عنه كيلا يصيبه بالنبال أو السهام، ويحاول هو أن يصيب

(١) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

خصمه بالنبال أو السهام . وكما تفعل الجيوش الحديثة حين ترسل طائراتها لترمى القنابل على قوات الخصم . وتقاس قوة الدول بقدرتها على ضرب القوات المعادية دون قدرة تلك القوات على الرد ، لأنها تصيبه من بعد فى عصر الصواريخ بعيدة المدى . ونجد الإشارة فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وأوضح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى القوة فيما رواهُ عنه عقبة ابن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوه الرمى .(١)

لأن الرمى يُمَكّن قذيفتك من عدوك ، وأنت بعيد عنه فلا يقدر أن يصيبك بما يرميه .

وقديماً كانت الجيوش تزحف ، فيُلقى الخصوم عليها النبال والسهام ، وإذا ما اقتربت الجيوش أكثر من خصومها فكل فريق يوجه الرماح إلى ما يقرب من أجساد الفريق الآخر . وإذا حمى وطيس المعركة تتلاقى السيوف . إذن كلها من النخس ، والمس ، واللمس .

وحينما خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ربه قائلاً : يارب كيف بالغضب ؟ أى كيف يكون علاج الغضب ؟ نزل قول الحق :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يستفهم قائل فيقول : أينزغ الشيطان الرسول ؟ . وأقول : إنّ الحق تبارك وتعالى لم يقل : « إذا نزغك الشيطان » ، ولكنه قال : « وإما ينزغنك » أى إن حدث

(١) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه وأبو داود .

ذلك ، وهو قول يفيد الشك - ثم لماذا يحرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من لذة مجابهة الشيطان ؟ . ونعلم عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك ؟ قال : وإياى إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) .(١)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشّيطان نزغ فاستعذْ بالله ﴾ .

والاستعاذة تعنى طلب العون والملجأ والحفظ وأنت لا تطلب العون ولا تلجأ ولا تستجير إلا بمن هو أقوى ممن يريد أن ينالك بشر . ومعلوم أن الشيطان له من خفة الحركة ، وقدرة التغلغل ، ووسائل التسلل الكثير ؛ لذلك فينبغى ألا تستعيذ بمثله أو بمن هو دونه ، ولكنك تستعيذ بخالق الإنس والجن وجميع المخلوقات ، وهو القادر على أن يعطل فاعلية الشيطان . وسبحانه سميع عليم ، والسمع له متعلق ، والعلم له متعلق ، فحين تستحضر معنى الاستعاذة وأنت مشحون بالإيمان وتلجأ إلى من خلقك . وخلق ذلك الشيطان ؛ عندئذ لابد أن يهرب الشيطان من طريقك لأنه يعلم أنك تلجأ إلى الخالق القوى القادر وهو ليست له قوة على خالقه ، وسبحانه سميع لقولك : « أعوذ بالله » ، عليم بما فى نفسك من معنى هذه الكلمة .

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هنا قد تكلم عن حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وقال : ﴿ وإمّا ينزغنك ﴾

أى أن الشيطان بعيد ، وهو يحاول مجرد النزغ ، فماذا عن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا ؟ . هنا يقول الحق تبارك وتعالى :ـ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

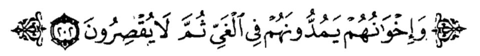
(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الجزء الأول ، وجامع الأحاديث للسيوطى جـ ٥ صـ ٦٠٨

ومن رحمة الله تعالى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مسّهم » ولم يقل : « لمسَهم ». لأنهم من الذين اتقوا، أى وضعوا بينهم وبين صفات جلال الله وقاية تجعلهم يقفون عند حدوده ولذلك يقول : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾.

والطائف هو الخيال الذى يطوف بالإنسان ليلاً، وبما أن الشيطان لا يرى، لذلك نصوره على أنه خيال، فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا وتذكروا خالق الشيطان وخالقهم، وتذكروا منهج الله الذى يصادم شهواتهم، وتذكروا أن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم، وأن محارم الله واضحة وبينة، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : فى الحديث الذى يرويه عنه النعمان بن بشير : (الحلال بيّن والحرامُ بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من النّاس، فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب).(١)

وإذا ما تذكر المؤمنون العقوبة المترتبة على أى فعل شائن يزينه الشيطان لهم، هنا تزول عنهم أى غشاوة ويبصرون الطريق القويم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :



ونحن حين نتتبّع كلمة « يمدونهم » فى القرآن، نجدها مرة « يمدونهم »، ومرة يمددكم كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة نوح)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان جـ ١ صـ ١٨٥

ونعلم أن الشياطين لن تترك المؤمنين فى حالهم ، بل تظل فى محاولة الغواية ، وتحاول الشياطين غواية المؤمنين الطائعين أكثر من محاولتهم غواية العاصين ؛ لأن العاصى إنما يعاون الشيطان باتباعه شهوات نفسه ، ولا يقصر العاصى أو الشيطان فى ذلك ، بل يحاول العاصى أو الشيطان غواية المؤمنين و«أقصر» من مادة «قصر» ، أى أنه قادر أن يطول المسافة لكنه يقصرها . وهكذا إلحاح الشياطين لغواية المؤمنين .

فالشيطان - كما جاء فى القرآن - يعترف بموقفه من ملاحقة المؤمنين بالوسوسة وتزيين المعاصى .

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

والشيطان يعلم أن من لا يتقى الله لا يحتاج إلى تزيين أو غواية ؛ لأنه يرغب ويميل للمعاصى والعياذ بالله ؛ لذلك لا يبذل الشيطان لغوايته جهدا كبيرا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

وقد جاء الحق تبارك وتعالى من قبل بكلمة « آيات » ، والآيات - كما أوضحنا - إما آيات كونية وإما آيات المعجزات الدالة على صدق الرسل ، وإما آيات الأحكام .

والله سبحانه وتعالى جاء هنا بكلمة : « آية » لا « آيات » ، والكون أمامهم ملئ بآياته ، والمنهج المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام واضح ، ولا ينقص إلا أن

تأتى الآية المعجزة - من وجهة نظرهم - وينبه الحق هؤلاء بقوله تبارك وتعالى فى سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالآياتُ المعجزاتُ التى طلبوها ، لا يأتى بها الرسول من عنده ، والآيات التى ينزل بها المنهج أيضاً ليست من عنده ، بل هى تنزيل من لدن عزيز حكيم . وكانوا يتهمونه صلى الله عليه وسلم أنه يفترى القرآن . لذلك طلبوا منه صلى الله عليه وسلم المعجزة الحسية متناسين ما جاءت به آيات القرآن الكريم من معجزة لم يستطيعوا هم أن يأتوا بآية واحدة من مثل آياتها ؛ وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ﴾

يأمره هنا ربه أن يقول : ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلىَّ من ربى ﴾

أى أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مكلف بأن يبلغهم بما يأتى به الوحى يحمله الروح الأمين جبريل عليه السلام من آيات القرآن الحاملة للمنهج الإلهى ، وهذا المنهج فى حد ذاته معجزة متجددة العطاء ، لذلك يضيف :

﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ففى القرآن الكريم بصائرُ وهدىً ورحمةٌ ، والبصائر جمع بصيرة ، من الإبصار ، إذا امتلأ القلب بنور اليقين الإيمانى فإن صاحبه يعيش فى شفافية وإشراق ، ويسمى صاحب هذه الرؤية المعنوية صاحب بصيرة ، أما البصر فهو مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكنْ هناك أمور معنوية لا تكتشفها إلا البصيرة ، والبصيرة تضئ القلب بالنور حتى يستكشف تلك الأمور المعنوية ، ولا يمتلك القلب البصيرة إلا حين يكونُ مشحوناً باليقين الإيمانى .

والقرآن الكريم بصائر؛ لأنه يعطى ويمنح من يؤمن به ويتأمله بصائر ليجدد الأمور المعنوية وقد صارت مُبْصَرَةً ، وكأنه قادر على رؤيتها ومشاهدتها وكأنها عينُ اليقين .

وهذا القرآن المجيد بصائرُ وهدى ، أى يدل الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله المستقيم، وهو رحمةٌ أيضاً لمن لا يملك إشراقات القلب التى تهدى للإيمان ولا يملك قوة أخذ الدليل الذى يوصله إلى الهداية ، إذن فهو رحمة لكل الناس ، وهدى لمن يسأل عن الدليل ، وبصائر لمن تيقن أصول الإيمان مشهدياً ،

وكما قلنا من قبل : إنَّ الله قد أخبر المؤمنين بأمور غيبية ، ومن هذه الأمور الغيبية أن له جنةً وأن له ناراً ، وصدق المؤمنون بكل ما جاءهم من البلاغ عن ربهم ، وعلموا أن ذلك من الله ، وصار هذا العلم علم يقين كقدر مشترك فيما بينهم ، فإذا جاءَ يوم القيامة ورأوا الصراط مضروباً على متن جهنم مطابقاً لما صدقوه وصار عين يقين ، وإذا ما دخل بعضهم النار - والعياذ بالله - تكفيراً لذنوب ارتكبوها ، فهذا حق يقين . وضربت المثل من قبل - ولله المثل الأعلى - كان الجغرافيون يحدثوننا ونحن طلاب عن خريطة الولايات المتحدة ، ويقولون : إن عاصمتها « واشنطن » ، والميناء الكبير فيها اسمه « نيويورك » ، وفى « نيويورك » توجد ناطحات السحاب وهى مبان

ضخمة يزيد ارتفاع المبنى الواحد من هذه المبانى على مائة طابق أى أكثر من مائتى متر ، وصدقنا نحن أستاذ الجغرافيا ، وعندما أتيحت للبعض منا فرصة السفر ورأوا واشنطن ونيويورك من الطائرة ، صارت الرؤية عين يقين بعد أن كانت علم يقين . وعند هبوط الطائرة فى مطار واشنطن صارت الرؤية حق يقين .

وقد عرض الحق سبحانه وتعالى لنا الإيمان ببعض من الغيب فى قوله تعالى :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة التكاثر)

أورد سبحانه هنا « علم اليقين » « وعين اليقين » ، وأما « حق اليقين » فقد جاء فى قوله :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمنون المصدقون بأخبار الغيب على درجات مختلفة . . فهناك من صدق الله فى الخبر عن الغيب كعين يقين ، وهناك من صدق قول الله حق اليقين ، ولذلك فإننا نجد الإمام عليا - كرم الله وجهه - يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا »

وفي الحوار الآتى الذى دار بين حضرة النبى صلى الله عليه وسلم، والصحابى الجليل الحارث بن مالك ما يكشف لنا جوهر هذا اللون من الإيمان :

« فقد روى الحارث بن مالك الأنصارى : أنه مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقّاً ، قال : «انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون[١] فيها . فقال يا حارث عرفت فالزم ثلاثاً » [٢]

هذا الصحابى الجليل وصل إلى أن كل ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم قد صار حق يقين ، وامتلك البصيرة التى رأى بها كلَّ ذلك .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نجد القرآن الكريم بصائر لأصحاب المنزلة والدرجات العالية ، وهدى لأصحاب الاستدلال ورحمةً للجميع .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

ومادام قد أوضح لك المولى سبحانه وتعالى من قبل أن هذا القرآن بصائر من ربنا

(١) يتضاغون : أى يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل .
(٢) أخرجه الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى .

وهدى ورحمة ، ألا يستحق أن تحتفى به أيها المؤمن ؟ . . ألا تجذبك هذه الحيثيات الثلاث لأن تعطى له أذنك وألا تنصرف عنه ؟ .

إذن لابد أن تنصت للقرآن الكريم لتتلقى الفوائد الثلاث ؛ البصائر ، والهدى ، والرحمة ، وهو حقيق وجدير أن يُحْرَص على سماعه إن قُرئ .

ولنلحظ أن الله تعالى قال : ﴿ فاستمعوا له ﴾ ولم يقل « اسمعوا » ، لأن الاستماع فيه تعمد أن تسمع ، أما السمع فأنت تسمع كل ما يقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، ومن الرحمة المحمدية يقول حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ناهياً عن التسمع لأسرار الغير تجسساً عليهم بالبحث عن عوراتهم فيما يرويه عنه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسَّسُوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » (١)

وفى هذا تحذير من هذه الأمور الخمسة التى منها التلصص والتصنت إلى أسرار الناس .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإنسان قد يصمت ويستمع ولكن بغير نيه التعبد فيحرم من ثواب الاستماع ، فاستمع وأنصت بنية العبادة ، لأن الله هو الذى يتكلم ، وليس من المعقول والتأدب مع الله أن يتكلم ربك ثم تنصرف أنت عن كلامه ، وقد لفت أنظارنا سيدنا جعفر الصادق (٢) : ونبهنا إلى ما فيه الخير حيث يقول :

« عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تبارك و تعالى : « حسبنا الله ونعم

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) جـ١٦ صـ١١٩ .
(٢) الإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر ، بن سيدى على زين العابدين ابن سيدنا الحسين .

الوكيل» ، فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

وعجبت لمن اغتم ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فإنى سمعت الله عقبها يقول :

« فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين » .

وعجبت لمن مُكر به ، ولم يفزع إلى قوله تبارك وتعالى : « وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » . فإنى سمعت الله عقبها يقول :- « فوقاه الله سيئات ما مكروا» .

وعجبت لمن طلب الدنيا ولم يَفْزَع إلى قوله تبارك وتعالى : « ما شاء اللهُ لا قوة إلا بالله » . فإنى سمعت الله عقبها يقول : « فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك » .

ونحن حين نستمع لقراءة القرآن الكريم بنية التعبد فذلك هو حُسْن الأدب الذى يجب أن نستقبل به العبر التى تعود بالفائدة علينا .

ووقف العلماء حول الإنصات سماعاً للقرآن ؛ أيكون الإنصات إذا قرئ القرآن مطلقاً فى أى حال من الأحوال ، أو حين يُقرأ فى الصلاة ، أو حين يُقرأ فى خطبة الجمعة ؟

وقد اختلفوا فى ذلك ، فبعضهم قال : إن المقصود هو الإنصات للقرآن حين يُقرأ فى الصلاة ، والسبب فى ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، يعيدون بعده كل جملة قرأها فإذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ قالوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالوا : « الحمد لله رب العالمين » فينبههم الله عز وجل إلى أن يتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ وهم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة .

وقال آخرون من العلماء : الإنصات للقرآن الكريم يكون فى الصلاة ، وفى خطبة الجمعة أو العيدين ، لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، ولكن اشتمالها على الآيات أقل مما يقوله الخطيب ، ونبه البعض إلى أن الإنصات للخطبة ثبت بدليل قول النبى عليه الصلاة والسلام :

(إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت)(١)

إذن الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

وهناك قول بأن الاستماع مطلوب للقرآن فى أى وضع من الأوضاع حين يُقرأ ؛ ففى هذا احترامٌ ومهابةٌ لكلام الله عز وجل ، وينسب هذا القول إلى إمامنا وسيدنا ومولانا سيدى « أبى عبد الله الحسين » ، فيقول :

إذا قُرئ القرآن سواءٌ إن كنت فى صلاة أو كنت فى خطبة ، أو كنت حرّاً فأنصت ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يميز القرآن على مطلق الكلام ، فميزه بأشياءَ ، إذا قُرئ ننصت له ، وإذا مسّ المصحف لابد أن يكون على « وضوء » حتى لا يجترئ الناس ويمسّوا المصحف كأى كتاب من الكتب ، وهذا يربى المهابة فلا تمسك المصحف إلا وأنت متوضئ ، فإذا علمنا أولادنا ، نقول للواحد منهم : لا تقرب المصحف إلا وأنت متوضئ ؛ فتنشأ المهابة فى نفس الولد .

وأيضاً فى « الكتابة » شاء الحق تبارك وتعالى لبعض ألفاظه كتابة خاصة غير كتابة التقعيد الإملائى ؛ حتى يكون للقرآن قداسة خاصة ، فهو كتاب فريد وليس ككل كتاب وكلامه ليس ككل كلام .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وبعض العلماء قال : ليس المطلوب مجرد الاستماع بالآذان ، بل المقصود

---

(١) رواه الإمام مالك فى مسنده، ورواه الإمام أحمد فى مسنده، والبيهقى، وأبو داود والنسائى - عن أبى هريرة.

بالاستماع هنا هو أن نستجيب لمطالبه ، ألا تقولون لبعضكم حين يدعو بعضكم لبعض : « الله يسمع دعاك » ؟ إنك تقولها وأنت تعلم أن الله سامعك ، ولكنك تقصد بها أن يستجيب سبحانه وتعالى لهذا الدعاء ، إذن فالاستماع للقرآن يقتضى الاستجابة لمطلوبات القرآن . لماذا ؟ لننال الرحمة من الحق فهو الرحمن الرحيم .
﴿ لعلكم ترحمون ﴾ .

ونعلم أن « لعل » « وعسى » حين تقال يقصد بها الرجاء ، و « ليت » تعنى التمنى وهو مستحيل ولا يُتَوَقّع ، ونحن نتمنى لنظهر أن هذا أمر محبوب لنا ، لكننا نعلم أنه مستحيل ، مثلما قال الشاعر العجوز :

ألا ليت الشباب يعــــود يوما   فأخبـره بمـا فعــل المشيب

إنه يعلم يقيناً أن الشباب لن يعود ولكن قوله يدل على أن الشباب فترة محبوبة .
ومثل قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها   عقود مدح فما أرضى لكم كَلِم

ولن تدنو الكواكب .

إذن ساعة تسمع « عسى » أو « لعل » يتبادر إلى ذهنك أن هذا رجاء لأن يحدث ، وإذا كان رجاء من الله ، فهو رجاء من كريم لابد له من واقع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

والذكر مرور الشئ ، إن كان بالبال ، فهو ذكر فى النفس ، وإن كان باللسان ولا يُسْمِع الغير ويُسْمِعك أنت فهذا ذكر السر ، وإن كان جهرا فهو قسمان ؛ جهر

مقبول ، وجهر غير مقبول ، والجهر غير المقبول هو أن يتحول الذِّكرُ إلى إزعاج والعياذ بالله ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الإسراء)

ولعل إخواننا القراء يتنبهون إلى هذه الآية ؛ تنبهاً يجعلهم يلتفتون إلى أداء أمر الله في هذا المجال فلا يجهرون ولا يرفعون أصواتهم به لدرجة الإزعاج ، لأنى أقول لكل واحد منهم : إن ربك لم يطلب منك حتى الجهر ، إنما طلب دون الجهر ، وأقول ذلك خاصة لهؤلاء الذين يفسدون نعمة الله على خلقه ؛ فيصيحون ليلا ويمنعونهم من رحمة الله ليلا التى قال عنها :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

فلا تفسدوا على الناس رحمة ربنا ؛ لأن الدعوة إلى الله ليست صياحاً على المنابر ، اللهم إلا إذا كنتم تصنعون لأنفسكم دعاية إعلامية على مساجد الله وعلى منابر الله . وهذا أمر مرفوض وغير مقبول شرعاً .

﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ﴾ والحق تبارك وتعالى يقول مرة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

ومرة يقول : ﴿ واذكر ربك ﴾

وقوله : « اذكر الله » يستشعر سماعها التكاليف ؛ لأن الله هو المعبود ، والمعبود

هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله : « اذكر ربك » فهو تذكير لك بما حباك به من أفضال ؛ خلقك ورباك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يعد ولا يحصى . فاذكر ربك ؛ لأنك إن لم تعشقه تكليفاً، فأنت قد عشقته لأنه ممدك بالنعم ، وسبحانه يتفضل علينا ويوالينا جميعاً بالنعم .

وأضرب لك هذا المثل - ولله المثل الأعلى وهو منزه عن التشبيه - وأنت لك أولاد، وتعطى لهم مصروفاً ، وحين تعطى لهم المصروف كل شهر ، تجدهم لا يحرصون على أن يروك إلا كل شهر ، لكن إن كنت تعطى لهم مصروفهم يوميا فأنت تلتفت لتجدهم حولك ، فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول إنه يحتاج لشئ موجود بالغرفة ، فما بالك وأنت بكل وجودك عبد لإحسان ربك ؟ وما دمت عبد الإحسان فاذكر من يحسن إليك ، اذكر ربك دائماً .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً . أى بذلة ، لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلة عبودية لمقام الربوبية ، واذكر ربك « خيفة » أى خائفاً متضرعاً؛ لأنك كلما ذللت له يعزك ، ولذلك نجد العبودية مكروهة فى البشر وهى استعباد، والناس ينفرون ممن يستعبدهم؛ لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيان كبير وظلم عظيم فهى تعطى خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك . ولذلك نجد الحق يمتن على رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كبرى بحادث الإسراء، وكان الحديث عنها بامتنان من الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والشاعر المؤمن يقول :

حسب نفسي عزاً بأني عبد يحتفي بي بلا مواعيد رب

هو في قدسه الأعز ولكن أنا ألقى متى وأين أحب

وأنت أيها العبد المؤمن تلقى الله متى أردت ، وإذا أسلمت زمامك للإيمان ؛ فالزمام في يدك. يكفي أن تنوى الصلاة وتقول : الله أكبر فتكون فى حضرته سبحانه سواء كنت فى البيت أو فى الشارع أو فى أى مكان . وفى هذا منتهى العزة لك.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٢٠٥ من سورة الأعراف)

ولم يقل هنا رب العالمين : بل ربك أنت يا محمد ، وهذه قمة العطاءات التى جاءت للناس ، فهذا العطاء الذى جاء بمحمد رسولاً ، نعمةٌ ومنةٌ من الله على المؤمنين برسالته ، وبعد ذلك ينسب لكل مسلم العطاء الذى جاء لمحمد . وقوله تعالى لرسوله : «واذكر ربك فى نفسك » أى أنه سبحانه لم يجعل دليل عنايته بك مقصوراً على مايشاهد فى الخارج والبعيد عنك فقط ؛ لأنك قد لا ترى شيئاً فى الكون أو لا تسمع شيئاً فى الكون ؛ لأن الكون منفصل عنك ، إنما انظر إلى نفسك أنت وستجد الآيات كلها تذكرك بخالقك ،

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

فقبل أن يجعل ربنا الدليل فى الكون الذى حولك ، جعل لك الدليل أيضا فى نفسك ؛ لأن نفسك لا تفارقك وأنت أعلم بملكاتها وبجوارحها ، وبنوازعها ، ولهذا كان التضرع إلى الله والخيفة منه لهما مجال هنا ؛ لأنك تستطيع أن ترى سر صنعته فيك ، وستجد الكثير من الآيات ، وهى آيات أكبر منك ، لذلك أنت تتضاءل أمام من وهب لك كل هذا ، وتخاف ألا تؤدى حقه لديك.

ونعود إلى قول الله تعالى : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ﴾ والذكر حَدَثٌ، والحدَثُ يحتاج إلى زمان وإلى مكان. والغدو والآصال زمنان يستوعبان النهار؛ فالغدو هو أول النهار، والآصال هو من العصر للمغرب، مثلما نقول " شمس الأصيل " . وهذه الآية الكونية تتكرر فى القرآن الكريم كثيرا، فالحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكما يقول عز وجل :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفتح)

و" الأصيل " هنا مشترك، ومقابل الأصيل يطلق الحق عليه مرة بكرة، وأخرى يطلق عليه : الغدو، وسبحانه القائل :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إنك ساعة أن تقرأ " فى بيوت " تعرف أن هنا حدثاً؛ لأن قوله : " فى بيوت "

شبه جمله" في معنى الظرف، وإذا استقرأت ما قبلها ، لم تجد لها مُتَعَلَّقاً . والحظ إذن أن ما قبلها هو ﴿ نور على نور ﴾ ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فأنت حين تذهب إلى المسجد لتلقى الله، فذلك نور، وتصلى له فذلك نور، وتخرج من هذا النور بنور يهبط عليك في بيته، وكل هذا نور على نور، فمن أراد أن يتعرض لنفحات نور الله عز وجل؛ فليكثر من الذهاب إلى بيوت الله، وللمساجد مهابة النور لأنها مكان الصلاة، ونعلم أن الصلاة هي الخلوة التي بين العبد وربه، وكان رسول الله إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . وأنت إذا ما اتبعت حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وتصلى ركعتين لله إن حزبك أمر وعزت عليك مسألة وكانت فوق أسبابك ثم ذهبت بها إلى الله فلن يخرجك الله إلا راضياً. ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ .

والغدو والآصال أو البكرة والأصيل كما عرفنا هي أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل.

ولماذا أزمنة أول النهار وأزمنة أول الليل ؟

لأن هذه الأزمنة هي التي يطلب فيها الذكر . فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليزيح عنك متاعب هذا اليوم، لذلك إياك أن تشغلك الحياة عن واهب الحياة، ولك أن تذكر ربنا وأنت تعيش مع كل عمل تؤديه وتقوم به وأن تقابل كل نتيجة للعمل بكلمة : (الحمد لله) وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أن تقول: « ما شاء الله » وعندما ترى أي شيء يعجبك تقول: (سبحان الله).

ولذلك حينما دعا الله خلقه المؤمنين به إلى الصلاة قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

وهذا التكليف في صلاة الجمعة المفروضة كصلاة للجماعة، والجماعة مطلوبة فيها، ومن الضروري أن نتواجد فيها كجمع؛ لأن الجماعة مشروطة فيها فلا تصح بدون الجماعة.

ونعرف أن الصلاة إنما هي ذكر لربنا، فماذا بعدها ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

أي إياك أن يشغلك انتشارك في الأرض وابتغاؤك من فضل الله، والأخذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله، بل عليك أن تذكره سبحانه وتعالى:

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أي لا تكن من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التي بينها الله عز وجل؛ لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك، وأنت إن جعلت خالقك في بالك دائما فإنك لاتغفل عن مطلوباته في الغدو والآصال وفي كل وقت، سواء كنت في الصلوات الخمس، أو كنت تضرب الأرض في أي معنى من المعاني، وتأس أيها المؤمن بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان الملائكة والذين لم يرتكبوا أية معصية وليس لهم موجبات المعصية، ولا يأكلون ولا يتناسلون، وليس لهم شهوة بطن ولا شهوة فرج، وكل المعاصي جميعها تأتي من هذه الناحية، مع ذلك يجب عليك أن تتأسى بهم؛ لأنهم هم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لايستكبرون عن عبادته، ويسبحونه؛ وله يسجدون، لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦) ﴾

وإذا كنا كلنا عند ربنا وفى حضرة ما منحه لنا من خَلْق وما أمدنا به من إيجاد من عُدم سواء، فلماذا خص هؤلاء بالعندية ؟.

إياك أن تفهم من العندية أنها عندية المكان؛ لأن المكان مُحَيِّز، وربنا عز وجل لا يتحيز فى مكان، والعندية هنا عندية الفضل، وعندية الرحمة، وعندية الملك، وعندية العناية. أو إن كل خلق لله جعل لهم أسباباً ومسبَّبات، ولكن خلقاً من خلقه يسبحونه بذاته، وليس لهم عمل آخر، ويعرفون بالملائكة العالين، لا الملائكة المدبرات أمراً أو الحفظة. ولذلك قلنا سابقاً: إن الحق سبحانه وتعالى حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتنع إبليس، قال له :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

و" العالين" هم الذين لم يشملهم أمر السجود، فهم ملائكة موجودون ولا عمل لهم إلا تسبيح الذات العلية ولا يدرون عن الخلق أو الدنيا شيئاً. وهم غير الملائكة المسخرين لخدمتنا؛ فالذين عند ربنا هم الملائكة المُهيَّمون الذين لا يعرفون شيئاً إلا الذات الإلهية وتسبيح الذات وعملهم يحدده الله هنا : ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾

واختلف العلماء فى كيفية سجود الملائكة، أهو الخضوع؟ أهو الصلاة ؟ أهو السجود الذى نعرفه نحن ؟ والسجود عندنا هو منتهى ما يمكن من الخضوع لله عز وجل وقت الصلاة. لأنه نزول بأشرف شئ فى الإنسان وهو الوجه الذى يضعه المؤمن على الأرض خضوعاً لله عز وجل . ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أننا إذا مررنا على آية سجدة من آيات كتاب الله فيها مثل ذلك فعلينا أن نستجيب لها استجابة حقيقية ونسجد لها سجدة تسمى سجدة التلاوة، ويكون ذلك عند تلاوتها أو سماعها من القارئ، وحصرها العلماء فيما تجدونه فى المصحف عند كل سجدة وجعلوا عندها علامة ووضعوا تحت الكلمة التى نسجد عندها خطاً. وحين قام العلماء ببيان المواضع التى تطلب فيها هذه السجدات وجدوها قد ابتدأت بسجدة آخر سورة "الأعراف" التى نتناولها بخواطرنا الآن، وانتهت بسجدة "العلق":

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وبينهما سجدات، وبعض العلماء عدّ فى سورة الحج سجدتين وبعضهم أهمل السجدة الثانية فى هذه السورة. فمن حسبها خمس عشرة سجدة، عدّ سجدة الحج الثانية المختلف عليها مع سجدة الحج الأولى - المتفق عليها - وبعض العلماء قال: إنها أربع عشرة سجدة؛ لأنه لم يحسب سجدة الحج الثانية.

وهب أنك أردت أن تسجد لله شكراً فى أى وقت، وعند أى آية فاسجد لله سجدة الشكر، وهى سجدة واحدة كسجدة التلاوة وتستحب عند تجدد نعمة أو انقشاع غمّه، أو زوال نقمة ولا تكون إلا خارج الصلاة.

والسجود بطبيعة الحال تبدأه بالتكبير، ورفع اليدين كأنك تبدأ الصلاة، والمفترض أن تقول: "سبحان ربى الأعلى"، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا ما نقوله فى السجود للتلاوة، وروى عن ابن عباس قال: كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فقال: إنِّى رأيتُ البارحَة - فيما يرى النائم كأنِّى أصلى إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ فسجدت الشجرةُ لسجودى فسمعتها تقول: اللهم احطُطْ عنى بها وِزْراً، واكتُب لى بها أَجْراً، واجْعَلها لى عندكَ ذُخْراً. قال ابنُ عباس: فرأيت النَّبى صلى الله عليه وسلم قرأ السجدة فسجد، فسمعته يقول فى

سجوده مثل الذى أخبره الرجلُ عن قولِ الشجرة »[(١)]

وبذلك تختم سورة الأعراف ، والتسمية للسورة فى ذاتها متناسبة ؛ لأن "الأعراف" هو المكان العالى البارز الذى يجلس عليه القوم ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم لينظروا إلى أهل الجنة وينظروا إلى أهل النار ، وهكذا تكون الأعراف مكاناً يزيد فى الارتفاع ، وهى مأخوذة من "عرف الفرس" ، وعرف الفرس أعلى شئ فيه ، والأنفال أيضاً هى الزيادة ؛ ولذلك فإن التسمية متناسبة سواء بالنسبة لسورة الأعراف أو الأنفال ، وأيضاً يوجد التناسب فى المعنويات ، وهذا التناسب نلحظه عندما نقرأ قول الحق تبارك وتعالى فى أواخر سورة الأعراف :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُـم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يأتى قوله سبحانه وتعالى فى أول سورة الأنفال :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

لأن من مهام الشيطان أن يفرق بين المؤمنين بوسوسته لهم ، فإذا ما تذكروا الله وما أعده لأهل الإيمان ؛ فهم يبصرون الحقيقة الأولى التى ترتفع على كل شئ وهى الإيمان بالله ، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يكدرها حتى تكون خالصة نقية.

(١) رواه ابن ماجه والترمذى وزاد فيه : وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام.


(٨)
سورة الأنفال
مدنية



يقول الحق سبحانه وتعالى مفتتحاً سورة الأنفال :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ① ﴾

السؤال يقتضى سائلاً : وهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقتضى مسئولاً هو الرسول عليه الصلاة والسلام، ويقتضى مسئولاً عنه وهو موضوع السؤال المطروح.

والمسئول عنه قد يوجد بذاته، مثلما نسأل صديقنا : ماذا أكلت اليوم ؟ هذا السؤال فيه تحديد لمنطقة الجواب، والجواب عنه أيضا يحدد المنطقة.

وموضوع السؤال فى قول الله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

يدل عليه الجواب، فهم لم يسألوا عن أسباب المحيض ، أو لماذا ينقطع عن الحامل أو من بلغت الكبر، لكن كان موضوع السؤال الذى هو واضح من إجابة الحق تبارك وتعالى : أيجوز أن يباشر الرجل المرأة أثناء المحيض أم لا ؟

وسؤال آخر سألوه للرسول صلى الله عليه وسلم عن اليتامى، ويحدد الجواب

موضوع السؤال : يقول الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ من سورة البقرة)

لأنهم كانوا يتخوفون من مخالطة اليتامى فى الأموال ومن مؤاكلتهم، وغير ذلك من ألوان التعامل، ورعاً وبعداً عن الشبهات وجاءت الإجابة لتحدد موضوع السؤال :

ومرة يأتى السؤال وفيه تحديد مناط الإجابة لأنها عامة مثل قوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٨٩ من سورة البقرة)

هم سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم : لماذا يبدأ الهلال صغيراً ولماذا يكبر، ثم لماذا يختفى فى المحاق ؟ . وهذا سؤال فى الفلك . ولم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا فى الحدود التى يستفيدون منها وهى القيمة النفعية العملية، وجاءت الإجابة : ﴿ قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ .

لأننا ورغم وجودنا فى هذا القرن العشرين إلا أن البعض من الناس مازال يكذب الحقيقة العلمية التى ثبتت بما لا يدع مجالاً لأى شك . ونقول للعامة : إن الهلال يشبه قلامة الظفر ثم يكبر ليستدير ثم يختفى قليلاً قليلاً . وفى هذا يقول الشاعر :

وغاية ضوء قمير كنت آمله مثل القلامة قد قدت عن الظفر

ولو قال لهم : إن الهلال يظهر حين تتوسط الأرض بين الشمس والقمر ثم يبدأ

في الاكتمال تباعاً، لما استطاعت عقولهم أن تستوعب هذه المسألة، فجاء لهم بالحكمة المباشرة النفعية التي تدركها عقولهم تماماً، ثم ارتقت العقول بالعلم ووصلنا إلى دراسة حركة الأفلاك التي توضح كل التفاصيل الفلكية.

وهناك سؤال يجيء في أمر محدد، مثل قول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢١٧ من سورة البقرة)

وهكذا عرفنا أن موضوع السؤال هو عن حكم القتال في الشهر الحرام، لا طلب تحديد الأشهر الحرم بالذات.

ويقول الحق تبارك وتعالى هنا : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ والأنفالُ جمعُ نَفَل (بفتح الحرف الأول والثانى)، مثل كلمة سَبَب وأسباب، والمراد بالنَفل هنا الغنيمة؛ لأنها من فضل الله تعالى وهى من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختصت بها هذه الأمة دون الأمم السابقة، والنفْل بالسكون الزيادة، ومنه صلاة النافلة؛ لأنها زيادة عن الفريضة الواجبة، وفى هذا المعنى يقول ربنا عز وجل فى آية ثانية : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾.

ونافلة تعنى أمراً زائداً غير مفروض، ولذلك نقول: إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرِض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصى، بل يعبد العبد ربه بأى لون من ألوان العبادة التى شرعها الله، وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة. ولذلك قال الحق تبارك وتعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

النفل إذن هو أمر تعبدى زائد عن الأصل .

وحينما ابتلى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ولده إسماعيل ، جاءه الابتلاء لا بوحى صريح ، ولكن برؤيا منامية وهو ابتلاء شاق ، فلم يكن الابتلاء - مثلا - أن يذبح إنسان آخر سيدنا إسماعيل ، ثم يصبر سيدنا إبراهيم على فقده ، لا بل هو الذى يقوم بذبح ولده إسماعيل . وهكذا كان الابتلاء كبيراً ، خصوصاً أنه لم يأت إلا فى آخر العمر . وكانت هذه المسألة من الملابسات القاسية على النفس . ولذلك أوضح ربنا عز وجل أن سيدنا إبراهيم كان أمة ، أى اجتمعت فيه صفات الإيمان اللازمة لأمة كاملة .

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولنر رحموت النبوة فى سلوك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاء لينفذ أمر الرؤيا بذبح الابن لأن رؤيا الأنبياء وحى ؛ لذلك لم يشأ أن يأخذ ولده أخذاً دون أن يطلعه على الحقيقة ؛ لأنه لو فعل ذلك سيعرض ولده لحظة لهاجس عقوق لأبيه ، وقد يقول الابن : أى رجل هذا الذى يذبح ابنه ؟ . وأراد سيدنا إبراهيم أن يشاركه ابنه كذلك فى الثواب ، وأن يكون الابن خاضعاً لأمر الحق تبارك وتعالى كأبيه فقال له :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وهكذا أوضح سيدنا إبراهيم عليه السلام الابتلاء الذى جاءه كرؤيا فى المنام.
فماذا يقول الابن إجابة على سؤال أبيه ؟

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن إسماعيل عليه السلام أسلم زمامه لأمر الحق تبارك وتعالى، ويواصل المولى سبحانه وتعالى وصف ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح الابن فيقول تبارك وتعالى:

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فبعد أن رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل وسلما أمرهما لله تعالى وامتثلا للأمر بالقضاء، رفع الله برحمته هذا القضاء؛ لذلك يصف الحق تبارك وتعالى هذا البلاء وتكرمه بالفداء فيقول :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وتعلمنا هذه الواقعة أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله، إياك أن تجزع، إياك أن تسخط، إياك أن تغضب، إياك أن تتمرد؛ لأنك بذلك تطيل أمد القضاء عليك، ولكن سلم لقضاء الله فيُرفع هذا القضاء؛ لأن القضاء لا يُرفَع حتى يُرْضى به. وهكذا لم يكن جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى البشرى بمزيد من العطاء فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه لم يرزقه بولد ثان فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً . وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هكذا يتجلى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذكره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكل ذلك نافلة من الله ، أى عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء .

إذن النفل هو الأمر الزائد عن الأصل . ومثال ذلك ما خص الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة)[1] .

إذن تشريع الله للغنائم فى الإسلام أمر زائد عن الأصل ؛ لأن الغنائم لم تحل لأحد من الأنبياء قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم .

وهناك نفل ، وهناك غنيمة ، وهناك فىء ، وهناك قبض .

وسنوجز معنى كل منها :

(١) رواه البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه . وجامع الأحاديث للسيوطى جـ ١ ص ٦٣٥ .

الغنيمة : هى ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين، وتقسم فيما بينهم بنسب معينة، فللرجل المقاتل سهم واحد، وللفارس سهمان، وهذا على سبيل المثال فقط وتقسيمها حسب تشريع الله عز وجل، وسبق بيان النفَل والنفْل بفتح الوسط وسكونه، والفىء هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر - « والقبَض » بتحريك الوسط بمعنى المقبوض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.

لكن إذا جاء ولى الأمر وبين للمقاتلين مشجعاً لهم على حركة الحرب مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(من قتل كافراً فله سلبه)(١).

فذلك أمر زائد فى حصته فى الغنيمة.

وقد يبعث القائد سريةً ويشجعها على خوض الصعاب فيقول لأفراد تلك السرية : لكم نصف ما غنمتم، أو الربع أو الخمس، فهذا يعنى أن من حقهم أن يأخذوا النسبة التى حددها لهم القائد كأمر زائد، ثم تقسم الغنائم من بعد ذلك، وساعة يأخذ المقاتلون الأسلاب والمتاع، والعتاد والأموال من الأسرى، فهذه تسمى غنائم، أما حين تُجْمع الغنائم عند ولى الأمر فيصير اسمها القبَض وقد سبق بيانه.

وفى يوم بدر حدثت واقعة يرويها الصحابى الجليل سعد بن مالك رضى الله عنه قائلاً :

قلت يا رسول الله : قد شفانى الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف، قال عليه الصلاة والسلام : « إن هذا السيف لا لك، ولا لى، فضعه »، قال : فوضعته، ثم رجعت، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى، قال : فإذا رسول الله يدعونى من ورائى. قال الصحابى : قد أنزل الله فى شيئاً ؟. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سألتنى السيف، وليس هو لى، وأنه قد وُهب لى، فهو لك، قال : وأنزل الله هذه الآية :

(١) رواه البيهقى وأبو داود والترمذى عن ابن قتادة.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآيه ١ سورة الأنفال)

أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليحكم فى أمر السيف إلا بعد أن ينزل حكم الله عز وجل. ونعلم جميعاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى غزوة بدر ولم يكن يقصد القتال، بل كان الخروج للعير التى تحمل بضائع قريش القادمة من الشام، وليس معها إلا أربعون رجلاً يحرسونها، ولذلك خرج المسلمون وكان عددهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم عدة أو عتاد، بل لم يكن لديهم إلا فرسان اثنان لأنهم لم يخرجوا لقتال، بل خرجوا للعير بغية أن يعوضوا أنفسهم شيئاً مما سُلبوه فى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان سلك طريق الساحل. أى سار فى طريق بعيد عن المسلمين ولم يأت من جهة الرسول والذين معه، واستنفرت قريش كل رجالها ليحموا العير، وصار الأمر بين أن يرجع المؤمنون دون حرب، وإما أن يواجهوا النفير، وهو التعداد الكثير، وكانوا ألفاً ومعهم العُدّة والعتاد، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشجع الفتيان على الحرب فقال لهم: «من قتل كافراً فله سلبه»، أى أنه خصّهم بأمر زائد عن سهمهم فى الغنيمة. فلما علم الكبار من الصحابة والشيوخ، قالوا: يا رسول الله هم قاتلوا وقتلوا، لكن نحن كنا عند الرايات، يفيئون إلينا إن وقعت عليهم هزيمة فلابد أن نتشارك، وحدث لغط وخلاف، فحسم الله سبحانه وتعالى هذا اللغط بأن أنزل قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله﴾.

فبين سبحانه أن الحكم فى قسمة الغنائم بين الجميع لله وللرسول وإياكم أن تخرجوا عن أمر الله فيها، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية. فلا تنازعوا ولا تختلفوا ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾.

إن كان قد حصل بين الطرفين، الشبان والشيوخ الكبار قليل من الخلاف فأصلحوا ذات بينكم. وساعة تسمع ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قد تسأل: ما هو البين؟ الجواب «البين» هو ما بين شيئين، فحين يجلس صف من الناس بجانب بعضهم

البعض، فما بين كل منهم هو ما يُسمى « البين »، وقد يكون الذى يفصلنا عن بعض « بين مودة » أو بين جفوة، إذن فالبين له صورة وله هيئة، فإن كانت الصورة التى بينكم وبين بعضكم فيها شىء من الجفوة فأصلحوا السبب الذى من أجله وُجدَ «البين» حتى لا يكون بينكم جفوة ونزاع.

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾

(من الآية ١ سورة الأنفال)

وقلنا إن أمر الطاعة معناه الامتثال، والطاعة ليست للأمر فقط بل للنهى أيضاً، لأن الأمر طلب فعل، والنهى طلب عدم فعل، وكلاهما طلب. وحينما يقول الحق: ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾.

تفهم هذا القول على ضوء ما عرفناه من قبل وهو أن مسألة الطاعة أخذت فى القرآن صورا ثلاثا، الصورة الأولى : يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ وفيها يكرر المطاع وهو الله والرسول، ولكنه يفرد الأمر بالطاعة.

ومرة ثانية يقول المولى عز وجل :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

أى أنه سبحانه يكرر المطاع، ويكرر الأمر بالطاعة.

ومرة ثالثة يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾. لأن منهج الله فيه أمور ذكرها الله عز وجل، وذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواردت السنة مع النص القرآنى، فنحن نطيع الله والرسول فى الأمر الصادر من الله. وهناك بعض من التكاليف جاءت إجمالية، والإجمال لابد له من تفصيل، مثل الصلاة وفيها قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

إذنْ فالله عز وجل أمر بالصلاة إجمالاً وقدّم الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الإجمال تفسيراً وتطبيقاً فهى خمس صلوات، ركعتان للصبح، وأربع ركعات للظهر، وأربع ركعات للعصر، وثلاث ركعات للمغرب، وأربع ركعات للعشاء، وحدد الرسول عليه الصلاة والسلام الصلوات التى نجهر فيها بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن، وحدد الصلوات التى لا نجهر فيها بالتلاوة.

إذن فحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ أطيعوا الله ﴾، أى أطيعوه فى مجمل الحكم، وحين يقول: ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أى أطيعوه فى تفصيل الحكم، وإذا ما قال: ﴿ أطيعوا الله والرسول ﴾ فهذا يعنى أن الحق قد أمر وأن الرسول قد بلغ، والمراد واحد، وإذا لم يكن لله أمر، وقال الرسول شيئاً فالحق يقول: ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾، وسبحانه قد أعطى رسوله تفويضاً بقوله:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

أى أن كل أمر من الرسول إنما يأتى من واقع التفويض الذى أكرمه الله به، وهنا يقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى إن كنتم مؤمنين حقا فاتقوا الله الذى آمنتم به واتّبِعُوا الأمر الصادر من الله

ورسوله لكم، لأن مدلول الإيمان هو اقتناع القلب بقضية لا تطفو للمناقشة من جديد، وكذلك اقتناع بأن هذا الكون له إله واحد، وله منهج يبلغه الرسول المؤيد من الله عز وجل بالمعجزة، وهذا الإيمان وهذا المنهج يفرض عليكم تقوى الله بإصلاح ذات البين، ويفرض عليكم طاعة الله والرسول فى كل أمر، ومن هذه الأمور التى تتطلب الطاعة هو ما أنتم بصدده الآن، لأنه أمر فى بؤرة الشعور.

ويأتى الحق بعد ذلك ليبين من هم المؤمنون فيقول:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

وفى هاتين الآيتين الكريمتين خمسُ صفات لها ترتيب عقائدى وحركى وجوارحى، وبذلك يتحدد تشخيص كلمة «المؤمنين»، هذه الصفات هى الأولى: أنه إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وثانية الصفات أنه: إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيماناً، ثالثة الصفات: أنهم على ربهم يتوكلون، ورابعة الصفات: أنهم يقيمون الصلاة، وخامسة الصفات: أنهم ينفقون مما رزقهم الله.

والصفة الأولى للمؤمنين هى:

﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأنفال)

والوجل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة، واضطراب فى القلب، وحينما أراد الشعراء أن يعطوا صورة بهذا الإحساس، نجد شاعراً منهم يقول:

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطـاط غرها شرك تجا ذبه وقد علق الجنـاح

فالشاعرُ يصور حالة قلبه حين سمع بنبأ سفر حبيبته، كأنه صار مثل حمامة تحاولُ أن تخلّص نفسها من شبكة أو مَصْيدة وقعت فيها، إنها تجاذب المصيدة حتى تخرج، وهى ترجف فى مثل هذا الموقف، هكذا حال القلب لحظة فراق المحبوبة عند الشاعر.

وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى : ؟

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين؛ لأن ذكر الله تعالى يأتى بأحوال متعددة، فإن كان الإنسان مسرفاً على نفسه، فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه. وإن كان الإنسان يراعى حق الله فى كل عمل قَدْر الاستطاعة، فلابد أن يطمئن قلبه لحظة ذكر الله؛ لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

إذن فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مَهابة وسطوة صفات الجلال. والاطمئنان إنما يجىء من إشراقات وحنان صفات الجمال. ولذلك تجمعهما آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

فالجلود تقشعر خوفاً ووجَلاً ومهابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنّان سبحانه وتعالى، لأن ربّنا قال :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فلا يقولن أحد إن هناك تعارضاً بين الوجل والاطمئنان، فكلها من ذكر الله بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجل الإنسان فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وهل يزيد الإيمان أو ينقص ؟

اختلف العلماء فى هذا الأمر. ونحن عندما ننظر إلى قول الحق نجده يؤكد زيادة الإيمان، وحينما نسأل ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ . . . . إلخ نجد الجواب فى توضيح الرسول صلى الله عليه وسلم ورده على السائل فى الحديث الآتى والذى يرويه الصحابى الجليل سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه حيث قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، قال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك . قال : يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها فذلك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاءُ البَهْم فى البنيان فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلا صلى الله عليه وسلم : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ردوا علىّ الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم (١).

وجبريل عليه السلام حين جاء يسأل ليعلم بعضاً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له الرسول عليه السلام عن الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفى رواية أخرى ذكر القضاء والقدر خيره وشره.

وهذه كلها أمور غيبية، ولا يقال فى الأمر المحسّ إيمان، فلا يقول واحد : أنا مؤمن أنى أتحرك على الأرض؛ لأن هذا أمر حسىّ. والإيمان لا يكون إلا بالأمور الغيبية وأولها أن تؤمن بإله واحد لا تدركه الأبصار وهو غيب، وبملائكته وهى غيب، وصدقنا وجودها لأنه أبلغنا بذلك الوجود. وكذلك أن نؤمن بالكتب المنزلة على الرسل. وبالرسل، وصحيح أن الكتاب أمر حسىّ والرسول كذلك له وجود حسّىّ، لكن لم نشاهد الوحى وهو ينزل الكتاب على الرسول. إذن فهو أمر غيبى، وكذلك الإيمان باليوم الآخر أمر غيبى أيضاً، والإيمان بالقضاء والقدر وهو ما غابت عنا حكمته، وكلها إذن أمور غيبية.

هذا الإيمان فى القمة، لكن هناك إيمان آخر يجىء لأننا نعلم أن التشريعات لم تأت مرة واحدة، بل كانت تأتى على مراحل؛ فتشريع ينزل أولاً بأن نؤمن أنه من الله. إذن فالذى يزيد وينقص من الإيمان هو الإيمان بالتكليفات، وأنها صادرة من الله عز وجل، وكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تزيد المؤمنين إيماناً، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمنوا بإقامتها واستجابوا ونفذوا، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به، ثم يجىء الأمر بالزكاة فتكون الطاعة والتنفيذ، وطبعاً هناك فرق بين أن تؤمن بالشىء، وأن تفعل الشىء. فالإيمان شىء، وفعله شىء؛ لأن الإسلام هو الانقياد الظاهرى للمنهج، وتطبيق كل ما يجىء به الإسلام هو إيمان مستمر متزايد؛ لأننا آمنا بأن ما يجىء من المنهج هو من الله. إذن فالذى يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات، مثال ذلك : كلنا نعرف قول الحق :

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه الجزء الأول ص ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤ كتاب الإيمان.

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

لكن هناك أناس يتمسكون بحرفية قوله الحق :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

والذين يتمسكون بحرفية القول الحق لم يتساءلوا : كفر بماذا ؟ هل كفر لأنه لم يحج ؟ لا ، إن كفره فى هذه المسألة لا يكون إلا بأن ينكر أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالمطلوب منا إيمانياً أن نقر بالحج كركن من أركان الإسلام فى حدود الاستطاعة ، فإن فعله الإنسان كان قد نفذ الحكم ، أما إن لم يفعله فقد يكون ذلك فى حدود عدم الاستطاعة .

ويذيل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها بقوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

ومُتَعلّق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور؛ لذلك ففى الأسلوب حصر وقصر ، مثلما نقول : « لزيد المال » أى أن المال ليس لغيره ، وقول الحق : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى لا يتوكلون على غيره ، بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى ، والتوكل : أن تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشىء الذى لا تقوى عليه تقول بصدده : « وكلت فلاناً ينجزه لى على خير وجه » وحتى تختار الذى توكله ويكون مناسباً لأداء تلك المهمة فأنت تعلن باطمئنان : أنك قد وكلت فلانا .

إذن معنى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أى أنهم يكلون أمورهم على من ائتمنوه على مصالحهم ، وهو الحق سبحانه وتعالى القادر العظيم الذى خلق الكون ، وخلق فيه أسباباً تؤدى إلى مسبَّبات الأسباب مقدمة ، والمسبّبات هى النتيجة . وبعد ذلك ترك

أموراً ليس فيها أسباب ، إلا أن نلحظ دائماً المسبب وهو الله تعالى ، فكل أمر يعز عليك فى أسبابه ؛ إياك أن تيأس من أنه لا يحدث ، بل قل : تلك هى قضية الأسباب ، أما أنا فلى رب خلق الأسباب . وهو القادر فوق كل الأسباب ، وفى حياتنا اليومية نلحظ أن الناس يخلطون بين عمل الجوارح ، وعمل القلوب ، ويظن إنسان ما أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ويركن إلى الكسل ويقول : أنا متوكل على الله ، وهذا نقول له : لا ، إن هذا منك تواكلٌ وليس توكلاً ؛ لأن التوكل ليس عمل جوارح ، التوكل عمل قلوب .

والمؤمن الذى يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التى يجب أن يأخذها ، وسبحانه وتعالى هو المسبب الأعلى ، والإيمان يؤكد أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فعلى الجوارح أن تحرث الأرض ، وأن تختار البذرة الطيبة ، وتنثرها فى الأرض ، ثم ترويها ، وتتعهدها ، وهذه العمليات اسمها الأسباب ، ثم لا تركن إلى الأسباب فقط ، بل عليك أن تقول : إن فوق كل الأسباب هناك المسبِّبُ . فمن الجائز أن يخضر الزرعُ وينمو ، ثم تأتى له آفةٌ من مطر أو حر وتضيعه .

ومن ينقل التوكل إلى الجوارح . نقول له : أنت تواكلت ، أى نقلت عمل القلب إلى الجوارح . ومن يقول ذلك إنما يكذب على نفسه وعلى الناس . لأنه تكاسل عن الأخذ بالأسباب وادّعى أنه متوكل على الله . ولو كان الواحد من هؤلاء صادقاً فى توكله على الله لأخذ بالأسباب . وعادة فإنى دائما أقول لمن يدّعى التوكل مع الكسل : لماذا لا تترك الطعام يأتى إلى فمك ، لماذا تمد إليه يديك ؟ . إن من يكسل إنما يكذب فى التوكل ، فلا أحد مثلاً يترك قطعة اللحم تقفز من طبق الطعام إلى فمه ، لكنه يأخذها بيده . ويمضغها بأسنانه ، ويبلعها بعد المضغ ، ولو كان صادقاً فى أن التوكل هو ألا تعمل جوارحه لما فعل شيئاً من ذلك ، لكنه يكذب ويتواكل فيما يتعبه ويشغل جوارحه فيما يريحه ، ولا يستعملها فى الأمور التى تتعبه . وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾

هذا القول يعنى أنهم يؤمنون بأن الأسباب من خلق الله . وحين يأخذ المؤمن

بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجئ إلى الله ومعتمد عليه ، لكن إن عزت عليه الأسباب فهو يعلم أن له رباً ، ولذلك قال : ﴿ وعلى ربهم ﴾ ، والرب هو الخالق من عَدَم ، والمد من عُدْم ، ومادام قد خلقك وأمدك من عُدْم قبل أن يكلفك ، فهل من المعقول أن يظلمك ؟ طبعاً لا . لكن عليك أن تفطن أنه خلق لك جوارح ، فاستعملْ الجوارح فيما خلقت من أجله .

وتأتى الآية التالية لتوضح عمل الجوارح ، وهى تحمل الصفتين الرابعة والخامسة من صفات المؤمنين :

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الأنفال)

والقيام والقعود والقراءة والتسبيح والتكبير فى الصلاة عمل جوارح ، وكذلك الزكاة هى عمل ناتج من عمل سبق ، فحتى تخرج الزكاة لابد أن تبذل الجهد وتأخذ بالأسباب لتنتج ما يعولك أنت ودائرتك القريبة من زوجة وأبناء ثم أقارب ، ومن بعد ذلك يفيض من المال ما تستقطع منه الزكاة ، وهذه بطبيعة الحال غير زكاة الزروع التى تُخْرَج فى يوم الحصاد .

﴿ وَءَاتُواْ حَقَّـهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ودائما ما نجد الصلاة والزكاة وهما مقترنتان ببعضهما ، ولا تجد آية فيها ذكر للصلاة إلا وفيها ذكر للزكاة أيضاً؛ لأن الصلاة تعنى ترك أمورك الحياتية التى تسعى فيها لدنيا الأسباب ، وتذهب إلى الحق سبحانه وتعالى وتقف بين يديه ، أى أنك قد اقتطعت جزءاً من الزمن الذى كنت تقضيه فى حركة حياتك لتقف فيه أمام ربك خالق الأسباب .

والزكاة تعنى أنك تقتطع جزءاً من مالك ، ولذلك قلنا : إن الصلاة فيها زكاة

وزيادة ، فأنت تخرج مقدار اثنين ونصف فى المائة مما يتبقى معك من مال يبلغ نصاباً ويكون زائداً عن الحاجة الأصلية ، لكنك بالصلاة تضحى ببعض الوقت الذى تقضيه فى العمل الذى يأتى لك بأصل المال ، إذن ففى الصلاة زكاة وأكثر . وأنت فى الزكاة تتنازل عن بعض المال ، لكنك فى الصلاة تتنازل عن الوقت الذى هو محل العمل ، وهو الذى تنتج فيه الرزق ، والرزق وعاء الزكاة .

ويذيل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية قائلاً :

(ومما رزقناهم ينفقون) ونعلم أن الرزق كما ذكر العلماء هو كل شئ ينتفع به الإنسان ، وحتى اللص الذى يسرق وينتفع بسرقته يعد هذا بالنسبة له رزقاً لكنه رزق غير طيب وله عقاب فى الدنيا إن تم ضبطه ، ولن يفلت من عقاب الله الحاكم العادل فى الدنيا والآخرة ، وهو بطبيعة الحال غير الرزق الحلال الذى يأتى من عمل مشروع ، والمؤمن الحق هو من ينفق من هذا الرزق الحلال ؛ سواء لمتطلبات حياته أو رعاية المجتمع الإيمانى .

وبعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

و « أولئك » تشير إلى من أنعم الله عليهم بالصفات الخمس السابق ذكرها ، وهؤلاء هم من وجلت قلوبهم من ذكر الله ، وزادتهم الآيات فى إيمانهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، هؤلاء هم المؤمنون حقاً ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ولنعلم أن الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا تذهب به الأغيار ، ويخضع له كل الناس لأنه يتعلق بمصالح حياتهم . وإن جاء الباطل ليزحزح الحق ، نجد الحق ثابتاً لا يتزحزح لأنه قوى . ولنقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

وحين ينزل المطر من السماء، يأخذ من مائه كل واد من الوديان على قدر اتساعه وعمقه، ويمتلىء، ترى الرغاوى وهى الزبد تطفو فوقَ السيْل، وهى عبارة عن هواء سببه وجود الشوائب من قش وغيره، وهذا مثل نراه فى حياتنا، ونجد الأرض والناس وكل المخلوقات تنتفع بالمياه، لكنها لا تنتفع بالزبد أو الرغاوى. ثم ينتقل الحق فى ذات الآية من ضرب المثل بالماء، إلى ضرب المثل بالنار فيقول:

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد).

وأنت حين ترى قطعة الحديد وهى تتحول إلى السيولة بالانصهار فى النار، تجد شرراً يتطاير منها، ويطفو فوق سطح الحديد المصهور، وهو ما يسمى بـ « خبث الحديد » وتتم إزالة هذا الخبث ليبقى الحديد صافياً لتصنع منه السيوف أو الخناجر وغيرها، وهذه الحالة تحدث فى الذهب حين يصهره الصائغ ليزيل عنه أية شوائب ويعيد تشكيله ليكون حلياً.

وزبد الماء وزبد الحديد وزبد الذهب يتجمع على الجوانب ويبقى الماء صافياً، وكذلك الحديد والذهب، ولهذا يقول الحق:

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن الحق يبقى صافياً ثابتاً، أما الباطل فيعلو ليتجمع على الجوانب ليذهب بغير فائدة .

ويوضح الحق علو كلمته سبحانه وتعالى فى آية أخرى فيقول :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى جاء بالجعل لكلمة الكافرين ، أما كلمته سبحانه وتعالى فلها العلو الثابت .

والحق هنا يبين أن المؤمنين الذين يتصفون بهذه الصفات الخمس هم مؤمنون حق الإيمان فيقول عز وجل : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ .

ومعنى هذا أن هناك مؤمنين ليسوا على درجة عالية من الإيمان ، أى أن هناك منازل ودرجات للإيمان متفاوتة ، ولكل قدر من الصفات منزلة وعطاء مناسب .

ونحن نرى البشر حينما يخصهم واحد بوده يفيضون عليه من خيراتهم ، فنجد غير العالم يأخذ ممن يودهم من العلماء بعض العلم ، والضعيف الذى يعطى وده لقوى ، يعينه القوى ببعض من قوته ، والفقير الذى يعطى وده لغنى ، يعطيه الغنى بعضاً من المال ، والأرعن يأخذ ممن يودهم من العقلاء قدراً من التعقل للأمور .

إذن أهل المودة والقرب والتقوى يفاض عليهم من المولى وهم ممن اختصهم الله بالعطاءات ، فالذى وجدت فيه هذه الصفات ، ومؤمن حقاً تكون له درجات عند ربه تناسب حظه من الحق وحظه من الصفاء ، ولنعرف أن السير فى درب الحق يعطى الكثير . والمثال الذى نقدمه على ذلك أننا نجد من يصلى الأوقات الخمسة فى مواعيدها ، وهذا هو المطلوب العام ، إذا ما صلى ضعف ذلك بالليل ، أو واظب على الصلاة فى الجماعة ويلزم نفسه بمنهج الله ، سوف يأخذ حظاً من الصفاء لم يكن موجوداً عنده من قبل ذلك ، وسيجد فى قلبه إشراقات وتجليات ، وتسير أمور حياته بسهولة ويسر .

وقد يكون الإنسان من هؤلاء - على سبيل المثال - خارجاً من البيت وسألته زوجته: ماذا نطبخ اليوم ؟ ويجيبها: لنقض هذا اليوم بما تبقى عندنا من الأمس. وعندما يعود قد يفاجأ بأن شقيقه قد قدم من الريف، وأحضر له هدية من البط، والقشدة والفطائر. فتسأله زوجته: أكنت تعلم بمجيء أخيك ؟ فيقول: لم أكن أعلم، وهذا مجرد مثال، لكن عطاءات الصفاء تكون أكثر من ذلك مادياً ومعنوياً، ومن يستمر في العبادة ويزيد عليها ويؤدى كل ذلك بحقه، سيزيد عطاء الله له؛ لأن الله لا يمل عطاء أهل الصفاء أبداً. ومن يجرب مثل هذه العبادة ويزيدها سيجد عطاء الله وهو يزيد.

ودائما أضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى وهو منزه سبحانه وتعالى عن التشبيه لنفترض أن إنساناً أراد أن يسافر من القاهرة إلى الإسكندرية، وسأل إنساناً آخر، فقال له: إن ذهبت من الطريق الفلانى ستجد استراحة طيبة، عكس الطريق الفلانى.

ويتبع المسافر نصائح من أرشده، فيجده صادقاً، فيرتاح من بعد ذلك لرأيه، وكذلك أهل الصفاء، هم أهل العطاء، وعلى قدر صفائهم يكون هذا العطاء. والذى يشجع الناس الذين يبالغون فى التعبد هو هذا الإشراق، وهناك من يصف الواحد منهم بأنه مجذوب وإن من يطلق على المتعبد الزاهد هذا الوصف يرى المنزلة العالية وهى تشد هذا المتعبد إليها، وهو من جهة أخرى ينظر هذا الزاهد إلى من يتعثرون فى طلب الدنيا، ويصفهم بينه وبين نفسه بأنهم من « الغلابة » ويدعو لهم.

وأقول لمن يرى واحداً من هؤلاء: لا شأن لك بأى إنسان من هؤلاء وإياك أن تتعرض لهم واتركهم فى حالهم، مادام الواحد منهم لا يسألك شيئا. (لهم درجات عند ربهم).

والدرجات عند البشر هى ارتقاءات يسعى إليها، فما بالنا بالدرجات التى عند الربّ ؟ ومادام الله سبحانه وتعالى قد وعدهم بالدرجات العالية عنده فقد ضمنوا المغفرة؛ لأن الواحد منهم سيطهر بالمغفرة، وجاء الحق بعطاء الدرجات قبل المغفرة

لأنه سبحانه خلق الخلق ويعرف أنهم أهل أغيار، ويعلم أن هناك من أسرفوا على أنفسهم، ويحاولون فعل الخيرات لأنهم يؤمنون بأن الحسنات يذهبن السيئات، وسبحانه علمنا أن معالم الدين تأخذ حظها من المسرفين على أنفسهم، لأن من لم يسرف على نفسه تجده يطيع الله طاعة هادئة رتيبة فليس وراءه ما يلهب ظهره. أما من عملوا السيئات فإن هذه السيئات تقض مضاجعهم. والمسرف على نفسه لحظة الإسراف يظن أنه أخذ من الله شيئاً واحداً من خلف منهجه، فيوضح له ربنا: إياك أن تظن أن هناك من يخدع الله. فأنت ستعمل كثيراً وبشوق لخدمة منهج الله، ونجد المسرف على نفسه لحظة الإفاقة والتوبة، وهو يندفع إلى فعل الخيرات. مصداقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

﴿ إن الله تعالى ليؤيد الدين بالرجل الفاجر ﴾[1].

لأن فجر الفاجر يتجسد أمامه ويريه سوء المصير، فيندفع إلى فعل الخيرات ليمحو السيئات، أما من لم يخطيء فنجده هادىء القلب، مطمئن النفس، لا يلهب ظهره شيء.

﴿ لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأنفال)

وهل هذا الرزق ناشىء من كريم ؟ الجواب لا؛ لأن الكرم تعدى من الكريم الأصيل، إلى أن صار الرزق نفسه كريماً، وكأن هذا الرزق يتعشق صاحبه؛ لأن ربنا ساعة يعطى إنساناً نعمةً، ثم يستعملها العبد فى الطاعة، تحس النعمة أنها مسرورة بالذهاب إلى هذا الإنسان لأنه استعملها فى الطاعة وفيما يرضى الله عز وجل.

ولك أن تعرف أن الرزق أعلم بمكانك منك بمكانه. فلا أحد يعرف عنوان الرزق الذى قدره الله له، لكن الرزق يعرف عنوان صاحبه، ويبحث عنه فى كل مكانٍ إلى

(١) جامع الأحاديث للسيوطى جـ ٢ صـ ٣٢٥ رواه الطبرانى.

أن يجده. هكذا نفهم أن الكرم يتعدى إلى الرزق نفسه فيصبح الرزق كريماً.

وجاء كل هذا الحديث بمناسبة الخلاف على الغنائم والأنفال، وفصل ربنا بالحكم وبين وأوضح أن الأنفال لله والرسول ولم يعد لأحد كلام بعد كلام الله، وهذه الحادثة في الأنفال حدثت في الخروج إلى الحرب، فحين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج للحرب، كان هناك فريق منهم كاره لهذا الخروج ثم رضي به. لكن حالهم اختلف في الغنائم فطالب بعضهم بأكثر مما يستحق؛ لذلك يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ ﴾

و « كما » تدل على تشبيه حالة بحالة، فهم قد رضوا بقسمة الله في الغنائم بعد أن رفضوها، وكذلك قبلوا من قبلُ أن يخرجوا لملاقاة النفير بعد كراهيتهم لذلك. لكنهم خرجوا وحاربوا وانتصروا ثم اختلفوا على الغنائم، ورضوا أخيراً بقسمة الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام.

فهل ذكر مسألة كراهيتهم للخروج إلى الحرب هي طعن فيهم؟ لا، فهذا القول له حيثية بشرية؛ لأن الذي يريد أن يخوض معركة لابد أن يغلب عليه الظن بأنه سوف ينتصر، وإلا سينظر إلى أن عملية الخروج إلى القتال فيها مجازفة. وكان المسلمون في ذلك الوقت قليلي العدد، وليس معهم عُدَد، بل لم يكن لديهم من مراكب إلا فرسان اثنان. وكان خروجهم من أجل البضائع والعير، لا لملاقاة جيش كبير، وهكذا لم تكن الكراهية لهذه المسألة نابعة من التأبي على أوامر الله تعالى، أو مطالب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نظروا إلى المسألة كلها بالمقاييس البشرية فلم يجدوا فيها التوازن المحتمل.

ويريد الله أن يثبت لهم أنهم لو ذهبوا وانتصروا على العير فقط، لقيل عنهم إنهم جماعة من قطاع الطرق قد انقضوا على البضائع ونهبوها، فلم يكن مع العير إلا أربعون رجلا، والمسلمون ثلاثمائة ويزيدون، ومن المعقول أن ينتصروا، ولكن ربنا أراد أن ينصرهم على النفير الذى استنفره الكفار من مكة، هذا النفير الضخم فى العدد والعدة ويضم جهابذة قريش وصناديدها، وتتحقق إرادة الحق فى أن يزهق الباطل. ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾.

والخروج من البيت هنا مقصود به خروج الرسول من المدينة لملاقاة الكفار، وهذا الفريق من المؤمنين لم تخرجهم الكراهية عن الإيمان؛ لأن معنى « فريق » هم الجماعة الذين يفترقون عن جماعة ويجمعهم جميعاً رباط واحد، فالجيش مثلاً يتكون من فرق، يجمعهم الجيش الواحد.

وهذه الفرق التى يأتى الحديث عنها هنا هى الفرق التى كرهت أن تخرج إلى القتال رغم أنهم مؤمنون أيضاً، ونعلم أن كراهية القتال أمر وارد بالنسبة للبشر، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

و « يجادلونك فى الحق »، أى يجادلونك فى مسألة الخروج لملاقاة النفير، بعد ما

تبين لهم الوعد الحق من الله عز وجل وهو وعده سبحانه وتعالى بأن تكون لهم إحدى الطائفتين، وهما طائفة العير أو النفير الضخم الذى جمعته قريش لملاقاتهم.

ومادام الحق قد وعدكم إحدى الطائفتين، فلماذا لا تأخذون الوعد فى أقوى الطوائف ؟ لماذا تريدون الوعد فى أضعف الطوائف ؟! لقد وعدكم الحق سبحانه وتعالى أن إحدى الطائفتين ستكون لكم، فكان المنطق والعقل يؤكدان أنه مادام قد وعدنا الله عز وجل إحدى الطائفتين، فلنقدم إلى الأنفع للإسلام والحق الذى نحارب من أجله، وأن نواجه الطائفة ذات القوة والشوكة والمنعة؛ لأنه قد يكون من الصحيح أن النصر مؤكد على طائفة العير، لكن هذا النصر سيبقى من بعد ذلك مجرد نصر يقال عنه! إنه نصر لقطاع طريق، لا أهل قضية إيمان ودين.

ولذلك يقول الحقّ تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فالمنطق إذن يفرض أن الله عز وجل مادام قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم بإحدى الطائفتين، طائفة فى عير والأخرى فى نفير، كان المنطق يفرض إقبال المؤمنين على مواجهة الطائفة القوية؛ لأن النصر على النفير هو أشرف من النصر على طائفة العير. ﴿ يجادلونك فى الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾.

ونلحظ أن هناك « سوق »، وهناك « قيادة »، والقيادة تعنى أن تكون من الأمام لتدل الناس على الطريق، و « السوْق » يكون من الخلف لتحث المتقدم أن يقصر المسافة مع تقصير الزمن، فبدلاً من أن نقطع المسافة فى ساعة - على سبيل المثال - فنقطعها فى نصف ساعة.

وقوله تعالى :

﴿ يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦ من سورة الأنفال)

أى أنهم غير منجزين للسير . بل هم مدفوعون إليه دفعاً ، وهم ينظرون بشاعة الموت ، لأنهم تصوروا أن مواجهتهم لألف فتى من مقاتلى قريش مسألة صعبة ، فألف أمام ثلاثمائة مسألة ليست هينة ؛ لأن ذلك سيفرض على كل مسلم أن يواجه ثلاثة معهم العدة والعتاد ، فكأن الصورة التى تمثلت لهم صورة بشعة ، لكنهم حينما نظروا هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن معهم ربّاً ينصرهم على هؤلاء جميعاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾

والوعد من الله عز وجل يجب أن يستقبل من الموعود بأنه حق ؛ لأن الذى يقدح فى وعد الناس للناس أن الإنسان له أغيار ، فقد تعد إنساناً بشىء ، وقد حاولت أن تفى بما وعدت ولكنك لم تستطع الوفاء بالوعد . أو كانت لك قوة وانتهت . أو قد يتغير رأيك . إذن فالوعد من المساوى من الخلق غير مضمون ، لكن الوعد من القادر القوى ، الذى لا تقف عراقيل أمام إنفاذ ما يريد ، هو وعد حق ويجب أن يتلقوا هذا الوعد على أنه حق . ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ .

أى إن كنتم تميلون وتحبون أن تكون لكم الطائفة غير ذات الشوكة التى تحرس العير - والشوكة هى شىء محدد من طرف تحديداً ينفذ بسهولة من غيره ، وأنت تجد الشوكة مدببة رفيعة من الطرف ثم يزداد عرضها من أسفلها ليتناسب الغلظُ مع القاعدة لتنفذ باتساع . وذات الشوكة أى الفئة القوية التى تنفذ إلى الغرض المرادَ ، ولا يتأبى عليها غرض ، ولذلك يقال « شاكى السلاح » . فإن كتم تتمنون وتريدون عدم ملاقاة جيش الكفار فى معركة فالمولى عز وجل يقول لكم ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ .

أى أن الله تعالى يريد أن ينصر الإسلام بقوة ضئيلة ضعيفة بغير عتاد على جيش قوى فيعرفون أن ربنا مؤيدهم ، وبذلك يحق الحق بكلماته أى بوعده . وهناك الكلمة من الله التى قال فيها :

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

(من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف)

هكذا كان وعد الله الذى تحقق . ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾

والدابر والدُبر هى الخلف ، وتقول : « قطعت دابره » أى لم أجعل له خلفاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قال من قبل ويريد الله أن « يحق الحق » ، وهنا يقول : « ليحق الحق » والمراد بالحق الأول نصر الجماعة الضعاف ، القلة الضعيفة على الكثرة القوية ، هذا هو الحق الأول الذى وعد به الحق بكلماته ، ليحق منهج الإسلام كله ، ولو كره المجرمون .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ ﴾

ومادة « استغاث » تفيد طلب الغوث، مثل « استسقى » أى طلب السقيا، و «استفهم » أى طلب الفهم، و « الألف » و « السين » و « التاء » توجد للطلب. و « استغاث » أى طلب الغوث من قوى عنه قادر على الإغاثة، وأصلها من الغيث وهو المطر، فحين تجدب الأرض لعدم نزول المطر ولا يجدون المياه يقال: طلبنا الغوث، ولأن الماء هو أصل الحياة؛ لذلك استعمل فى كل ما فيه غوث، وهو إبقاء الحياة، وفى حالة الحرب قد يفنى فيها المقاتلون؛ لذلك يطلبون الغوث من الله عز وجل ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ .

و « تستغيثون ربكم » بضمير الجمع، كأنهم كلهم جميعاً يستغيثون فى وقت واحد، وقد استغاث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصطف القوم وقال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه واستقبل القبلة وقال: « اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم ائتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » . [1].

ويدل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه كان يستغيث بالخالق الذى وعد بالنصر، ورد القوم خلفه: آمين، لأن أى إنسان يؤمن على دعاء يقوله إمام أو قائد فهو بتأمينه هذا كأنما يدعو مثلما يقول الإمام أو القائد. فمن يقول: « آمين » يكون أحد الداعين بنفس الدعاء. والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب .

﴿ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهذا ما جاء فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعدها :

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة يونس)

مع العلم بأن سيدنا موسى عليه السلام هو الذى دعا ، وقوله سبحانه من بعد ذلك « أجيبت دعوتكما » دليل على أن موسى دعا وهارون قال : « آمين » فصار هارون داعياً أيضاً مثل أخيه موسى .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأنفال)

« فاستجاب لكم » الألف والسين والتاء - كما علمنا - تأتى للطلب ، وقول الحق سبحانه وتعالى « فاستجاب » يعنى أنه طلب من جنود الحق فى الأرض أن يكونوا مع محمد وأصحابه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، خلق الكون ، وخلق فيه الأسباب . نراها ظاهرة ، ووراءها قوى خفية من الملائكة . والملائكة هم خلق الله الخفى الذى لانراه ولانبصره ، إلا أن الله أخبرنا أن له ملائكة .

فالملائكة ليست من المخلوقات المشاهدة لنا ، وإنما إيماننا بالله ، وتصديقنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الله تعالى جعلنا نعرف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الملائكة ، وأخبرنا أيضاً أنه خلق الجن وصدقنا ذلك ، إذن فحجة إيماننا بوجود الملائكة والجن هو إخبار الرسول الصادق بالبلاغ عن الله تعالى ومن يقف عقله أمام هذه المسألة ويتساءل : كيف يوجد شىء ولا يرى ، نقول له : هذه أخبار من الله.

وهناك من أنكر وجود الملائكة والجن وقال : إنها القوى الميكانيكية فى الأسباب ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمر غيبى ، فسبحانه يترك فى مشهديات وجوده وكونه ما يقرب هذا الأمر الغيبى إلى الذهن ، فيجعلك لا تعرف وجود أشياء تشعر بآثارها ، ثم بمرور الزمن تدرك وجودها ، وهذه الأشياء لم تُخلق حين اكتشفتها ، وإنما هى كانت موجودة لكنك لم تتعرف عليها ، وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك وجود الشيء . ومثال ذلك كان اكتشاف الميكروب فى القرن السابع عشر وهو موجود من قبل أن يكتشف ، وكان يدخل فى أجسام الناس ، وينفذ من الجلد ، وحين اكتشفوه ، دلّ ذلك على أنه كان موجوداً لكننا لم نكن نملك أدوات إدراكه . إذن فإن حُدثت بأن لله خلقاً موجوداً وإن لم تكن تدركه ، فخذ مما أدركته بعد أن لم تكن تدركه دليل تصديق لما لا تدركه .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى بوجود الملائكة ، وكل شيء له ملائكة يدبرونه ، وهم : « المدبرات أمرا » ، والملائكة الحفظة ، وسبحانه القائل :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وسبحانه أيضاً القائل :

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

وهؤلاء الملائكة هم الموكلون بمصالح الإنسان فى الأرض ، المطر مثلاً له ملكه ، الزرع مثلاً له ملكه ، وكل شيء له ملك . وهو سبب خفى غير منظور يحرك الشيء . ﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة ﴾ .

والإمداد هو الزيادة التى تجيء للجيش ، لأن الجيش إذا ووجه بمعارك لا يستطيع أن يقوم بها العدد الموجود من الرجال أو السلاح ، حينئذ يطلب قائد الجيش إرسال

المدد من الرجال والعتاد .

﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

ونعلم أنه ساعة أن أمر ربنا الملائكة أن تسجد لآدم ، لم يكن الأمر لكل جنس الملائكة ، بل صدر الأمر إلى الملائكة الموكلين بمصالح الأرض . أما الملائكة غير الموكلين بهذا ، فلم يدخلوا فى هذه المسألة ، ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى حينما عنف إبليس ، قال له :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بـ « العالين » هم الملائكة الذين لم يشملهم أمر السجود .

والحق تبارك وتعالى هنا فى هذه الآية يبين أنه سبحانه وتعالى قد أمد المسلمين المحاربين فى غزوة بدر بـ : ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾

والردْفُ هو ما يتبعك ، ولذلك يقال : « فلان ركب مطيته وأرْدَفَ فلاناً » ، أى جعله وراءه . والمرُدف هو من يكون في الأمام ، والمردَف هو من يكون خلفه . والآية توضح لنا أن الملائكة كانت أمام المسلمين ؛ لأن جيش المسلمين كان قليل العدد ، وجيش الكفار كان كثير العدد ، وجاءت الملائكة لتكثير عدد جيش المسلمين ، فإذا كان العدد مكوناً من ألف مقاتل ، فقد أرسل الحق ملائكة بنفس العدد ويزيد بذلك جيش المؤمنين بعدد المؤمنين . وكان يكفى أن يرسل الحق ملكاً واحداً ، كما تحكى الروايات عما حدث لقوم لوط ، فقد روى أن جبريل عليه السلام ، أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط ، وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار ، ونباح الكلاب ، وصياح الديوك ، ولم تنكفىء لهم جرّة ، ولم ينسكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض .

وصيحة واحدة زلزلت قوم ثمود . لماذا إذن أرسل الحق تبارك وتعالى هنا ألفاً من

الملائكة ؟ . حدث ذلك لتكثير العدد أمام العدو وليفيد فى أمرين اثنين :

الأمر الأول : أن تأخذ العدو رهبة ، والأمر الثانى : أن يأخذ المؤمنون قوة لكن أكان للملائكة فى هذه المسألة عمل ؟ أو لا عمل لهم ؟ هنا حدث خلاف .

ونجد الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

أى أن الملائكة هى بشرى لكم ، وأنتم الذين تقاتلون أعداءكم ، وسبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

قال الحق سبحانه وتعالى ذلك للمؤمنين وهم يدخلون أول معركة حربية ، ويواجهون أول لقاء مسلح بينهم وبين الكافرين ، لأنهم إن علموا أن الملائكة ستقاتل وتدخل ، فقد يتكاسلون عن القتال ويدخلون إلى الحرب بقلوب غير مستعدة ، وبغير حمية ، فأوضح ربنا : أنا جعلت تدخل الملائكة بشرى لكم ، و « لتطمئن به قلوبكم » ، أى أن عدد الملائكة يقابل عدد جيش الكفار ، والزيادة فى العدد هى أنتم يا من خرجتم للقتال . واعلموا أن الملائكة هى لطمأنة القلوب . لكن الحق يريد أن يعذبهم بأيديكم أنتم ؛ لأن الله يريد أن يربى المهابة لهذه العصبة بالذات ، بحيث يحسب لها الناس ألف حساب .

واختلفت الروايات فى دور الملائكة فى غزوة بدر ، فنجد أبا جهل يقول لابن مسعود : ما هذه الأصوات التى أسمعها فى المعركة ؟ فقد كانت هناك أصوات تُفزع

الكفـار فى غزوة بـدر – ويرد ابن مسـعـود على أبى جـهل : إنهـا أصـوات الملائكة . قال : إذن بالملائكة تغلبون لا أنتم . .

فـإياكم أن تفـتنوا حـتى بالملائكة ؛ لأن النصـر لا منكم ولا من الملائكة ، ولكن النصر من عندى أنا ؛ لأن الذى تحب أن ينصـرك ، لابد أن تكون واثقاً أنه قـادر على نصرتك ، والبشر مع البشر يظنون الانتصار من قبل الحرب ، ومن الجائز أن يغلب الطرف الآخر ، لكن النصر الحقيقى من الذى لا يُغْلَب وهو الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾

وأنت حين تستنصر أحداً لينصرك على عدوك فهذا الذى نستنصر به إن كـان من جنسك يصـح أن يَغْلب مـعك ويصح أت تنغلب أنت وهو ، لكنك تدخل الحـرب مظنة أنك تغلبَ مع مَن ينصرك وقد يحدث لكما معاً الهزيمة أمَّا الحقُّ سبحانه وتعالى فَـهو وحـده الذى لا يُغَـالَب ولا يُغْلَب . ﴿ ومـا النصـر إلا من عند الله إن الله عـزيز حكيم ﴾ .

وهو سبـحانه وتعـالى الناصر ، وهكذا يكون المؤمن الذى يقـاتل بحـمـية الإيمان واثقـاً من النصـر ، لكن إياكم أن تظنوا أن النصر من الله لا يصـدر عن حكمـة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمةً ، فإن تهـاونتم فى أى أمر يُسلب منكم النصر ؛ لأن الله لا يغـيـر سننه مع خلقه ، وقـد رأينا مـا حدث فى غزوة أحـد حين تخـاذلوا ولم ينفذوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتصروا ؛ لأن الحكمة اقتضت ألا ينتصـروا ، ولـو نصرهم الله لاستـهانوا بعـد ذلك بأوامر رسـول الله صلى الـله عليه وسلم ، ولقـال بعض منهم : خالفناه وانتصرنا ، وهكذا نجد أن طاعة الله والرسـول والأخذ بالأسباب أمر هام ، فحين جاء الأمر من رسول الله فى غزوة أحد بما معناه : يا رماة لا تتركوا أماكنكم ، ولو رأيتمونا نفر إلى المدينة ، فلا شأن لكم بنا ، وعلى كل منكم أن يأخذ دوره ومهمته ، فإذا رأى أخا له فى دوره قد انهزم فليس له به شأن ، وعلى كل مقـاتل أن ينفذ مـا عليه . لكنهم خـالفـوا فسلبـهم الله النصـر . وهكذا يتأكد لهم أن النصر من عند الله العزيز الذى لا يغلب . وقـال البخارى عن البراء بن عـازب قـال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبى صلى الله عليه وسلم جيشا من

الرماة، وأمَّر عليهم «عبد الله بن جبير»، وقال عليه الصلاة والسلام: «لاتبرحواوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا»⁽¹⁾.

ونلحظ أن المدد بالملائكة ورد مرة بألف، ومرة بثلاثة آلاف في قوله الحق سبحانه

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإن لم يكفكم ثلاثة آلاف سيزيد الله العدد، لذلك يقول المولى عز وجل:

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن المدد يتناسب مع حال المؤمنين، ويبين ذلك قوله سبحانه: ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾

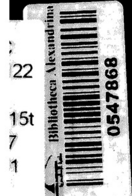
فالصبر إذن وحده لا يكفي بل لابد أيضا من تقوى الله، ولابد كذلك من المصابرة بمغالبة العدو في الصبر؛ لذلك يقول المولى تبارك وتعالى في موقع آخر: ﴿ اصبروا وصابروا ﴾ وذلك لأن العدو قد يملك هو أيضاً ميزة الصبر؛ لهذا يزيد الله الصابر، فإن صبر العدو على شيء فاصبر أنت أيها المؤمن أكثر منه.

وقد جعل الله عز وجل الإمداد بالملائكة بشرى لطمأنة القلوب وثقة من أن النصر من عند الله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(الآية ١٠ من سورة الأنفال)

(١) رواه البخاري.



٢٠٠ قرشا

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم